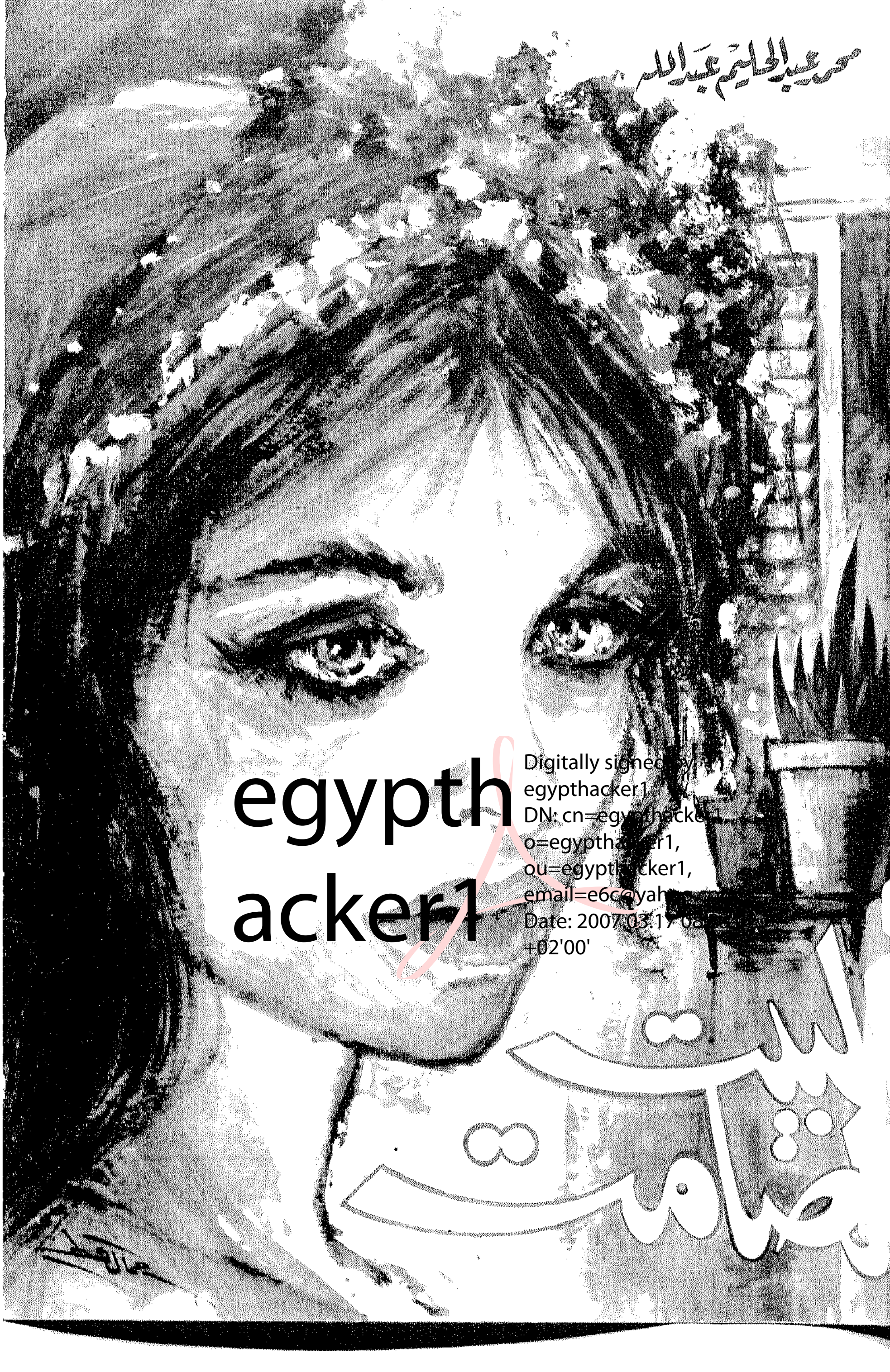

محمد عبد الحليم عبد الله

البيت الصامت

مطبوعات مكتبة مصر

البيت الصامت

رواية

تاليف
محمد عبد الحليم عبد الله

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى "الفجالة"

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه
٣٧ شارع كامل صدقى - الفجالة
ت ٩٠٥١٤٧ - ٩٠٧٥٩٢

١

إنها لا تدرى لماذا تذكرت هذا اليوم .. عاد إليها بتفاصيله مع أنها كانت موقنة أنها نسيته .

وعندئذ أحست بالخوف ..

كانت وقتها فى الحمام .. البخار والدفء يصنعان حولها جوا مسحورا .. برائحة صابون معطر وصوت أغنية مع نكهة أخرى فى قميصها المعلق على الشماعة ..

إنها ستذهب إليه بعد خمسة أيام .. وتأكد فى خاطرها عدد « خمسة » حين ألقت نظرة على كفها اليمنى : ولذ لها أن تعد أصابع يدها .. « خمسة » فى إحداها خاتم الخطبة .. وخمسة أيام ثم تنتقل إلى بيت زوجها ..

وألقت نظرة على قميصها المعلق .. كان متدليا فى التهدل المألوف للحرير وفى لون البنفسج الفاتح .. ونهضت من فوق الكرسى المنخفض واتجهت نحو القميص كطفلة تلعب .. تتفحص كل شيء فى خلوتها حتى ولو عرفته من قبل .. وأكبت على قميصها ودست أنفها فيه ..

فيه رائحة مزدوجة التقى فيها شيئان .. رائحة جسمها ورائحة عطر .. وأغمضت عينيها ووضعت خدها على القميص وقد استندت بكفيها إلى الحائط فى منظر خاشع ولحظة « تجرد » طويلة عميقة أعمق من المألوف حتى شعرت كأنها ترقب فتاة أخرى مع « سلامة » وهما فى امتزاج متكامل .. من حولهما رائحة الشوق والحب وكأن « سلامة » حاضر بلحمه ودمه ..

أخذت نفسا طويلا ثم أفاقت على الذكرى المنغصة .. فلماذا تذكرت ـــ فجأة ـــ هذا اليوم ؟! بعد أن مرت عليه عشرة أعوام على الأقل وعاد إليها بتفاصيله ..

ورفعت خدها عن القميص ووقفت منتصبة .. السقف يحجبه البخار والأوانى ملقاة بلا نظام .. وأخذت تجفف جسمها محاولة أن تسترد سكينة قلبها .. غير أن السكينة لا تعود بالبساطة التى طارت بها .. فأسبلت عينيها واسترسلت فى الأحلام ..

أحلام بعضها فى سرير العرس وأخرى تدخل تحت كلمة كابوس .. ومصدرها ذلك اليوم ... لكنها ـــ وكأنما كان ذلك بفعل الماء الدافىء ـــ ألفت نفسها أكثر راحة وأميل إلى الهدوء .. فعاد النسيان أكثر كثافة ..

* * *

وعندما دخلت غرفتها لتنام ألفت كل شىء حولها يتحدث عن الرحيل دون أن يتكلم .. فبدا لها هذا السرير الذى طالما سقطت بها ألواحه أغلى من سرير ملكة .. ستحتله أختها بعدها وكم هى فرحة بهذا ، وكانت إلى جوارها تغط فى النوم ولكن « درية » لم تنم بعد .. ترى فى الضوء الخافت الذى يؤنس الحجرة فرشا جديدة مكدسة على وشك أن تنقل .. وأشياء صغيرة مربوعة ومحزومة ككائنات بلا أرجل ..

فأدارت الخاتم فى أصبعها .. خيل إليها فى هذه الوهلة أن أى مكان فى الدنيا ليس أجمل من هذا المكان . خصوصا الليلة .. ورأت أسمها محفورا بمسمار بيد أخيها الصغير على الحائط الملاصق للفراش بحروف بدائية لابن ست سنوات .. تذكار كوفىء عليه بعلقة من الأم لكنها هى شخصيا كافأته عليه بقبلة.. أحست أنه يؤكد انتسابها إلى الأصل .. وعاودتها صورة « سلامة » بطوله

الفارع ووجهه الأسمر المتعطش ، ونظرته التي تفحص كل شيء .. نظرة جميلة ومخيفة .. تسيح فيها وتذوب على رأى إحدى زميلاتها فى المدرسة ..

إنها ستنتقل إليه بعد خمسة أيام .. يوم الخميس القادم ..

وتأوهت كالملسوعة .. فقد كان هذا اليوم الذى ذكرته يوم الخميس أيضا ..

فقد كانت خارجة من المدرسة بعد دراسة نصف يوم .. فرحة بيوم الجمعة .. « أف .. أف » وتساءلت : لماذا يلح عليها كذبابة .. أنها تريد أن تنام .. وأن تستمتع بصوت أبيها وهو ينادى اسمها منغما فى الصباح لتقوم فتجهز الفطور .. تريد أن تستمتع بكل شيء فى هدوء أو صخب .. وأن تضحك عندما تتداعى بها ألواح السرير فتجد نفسها تحته فى وضع مضحك ..

لكن ذكرى هذا اليوم تخيفها .. وبمرور الوقت أخذت صورته تكبر .. كان يقتات من طمأنينتها فيزداد ظله حتى كاد يغشى قلبها وعينيها ..

فى صبيحة اليوم التالى أخذت تحملق فى أمها .. كانت ساهمة تماما .. مخلوق يجتاز معركة نفسية ومادية ويودع كبرى بناته .. تجيب عن كل شيء بالصراخ .. ولذلك أقسم زوجها ألا يتحدث إليها إلا بعد خروج العروسة ..

وسمعت « درية » هذه الكلمة .. فعزمت على أن تحدث أمها فى أمر الخروج .. لكنها عادت فعضت سبابتها .. ماذا تقول لها ؟! ماذا تقول لأمها ؟! ففى بعض الخلوات ألقت إليها النصائح المألوفة تلك التى تسلمها كل أم لبنتها قبل الزفاف كصندوق من عهد حواء فيه السحر أو الخديعة وكلمات سبقت عهود الحكماء ..

لكن « درية » تحس بحاجة أخرى جديدة .. تريد أن تحدث فيها أمها ..

وها هو ذا يوم الخميس قد أزف .. لم يعد يفصلها عنه إلا يومان اثنان ولا بد لها من أن تسمع من أمها كلمة ..

وصممت على ذلك فصارت تتبع خطاها فى المسكن مثل ظل أخرس .. خفيف الحركة ناضج الأنوثة منحه القلق بريقا فى العينين مثل بريق مرآة لا تعكس إلا الفراغ .. وكان الجميع ينظرون إليها بشفقة حيية على أنها فتاة يعز عليها أن تفارق بيت والديها ..

وفى مساء الثلاثاء أتى « سلامة » .. دخل يختال بعوده الطويل وكتفيه العريضتين وعلى فمه ابتسامته غير المبالية .. حليق الذقن غزير الشارب .. يرتدى حلة جديدة .. وقد اصفرت أسنانه من الشاى .. وأحست الفتاة حينما رأته كأنه ملاذها .. شعرت أنها تريد أن ترتمى بين ذراعيه وتشكو إليه .. لكن هذا الخاطر ما لبث أن تلاشى بعد ما بدا سخيفا للغاية .. وعلى مقربة من الفرش المكدسة جلس العروسان .. نظر إليها من خلال أهدابه نظرة رجل سهر طويلا ، فى عينيه القويتين تعب طارىء .. والتقى بصرهما على وسادة فوق كومة من التنجيد .. فابتسم بعدها وقال لها وهو يشير إلى الوسادة :

ـــ على هذه سنتفق فى كل شىء ..

كادت الدموع تنبثق من عينيها .. لكن ابتسامة كبيرة ولدت على فمها .. وشهقت ضاحكة شبه باكية ولم تتكلم .. ثم خافت .. فخطفت نفسها خطفا وقامت إلى الخارج حيث التقت مع أمها التى تحمل للعريس شرابا دافئا .. أما هى فقد ذهبت إلى الحمام حيث وقفت تتأمل لا شىء !!

وعادت خارجة فالتقت بأمها .. نظرت إليها الأم نظرة باسمة .. فيها إيجاز لتاريخ امرأة ..

وعندئذ عادت « درية » .. وجلست إلى جواره وهو يرتشف الشاى

ويقطم إحدى الفطائر ..

ـــ لماذا لا تأكلين .. شاركينى ..

هزت رأسها وأطرقت وردت فى هدوء :

ـــ لست جائعة ..

قال باسما :

ـــ أشكر لك هذا الإطراء .. وجودى يغنيك عن كل شيء ؟!.. شكرا .. عندما تكونين معى فى بيتى .. فى بيتك .. سأفعل نفس الشيء .. سأشبع عن الدنيا .. إلا أنت ..

أحست أنها تتنفس بارتياح .. صدرها يتسع كمروحة كانت مقفلة من قبل .. جرعة من الحنان والخدر فى وقت واحد فياليتها تستمر ..

سرت رعدة فى أوصالها فأحست أنها على وشك الرعشة .. طحنت أسنانها السفلى بالعليا وهزت رأسها وهى تنظر إليه .. أما هو فكان ساكن الريح .. هادئا .. وظلت نظرته تتسرب من بين أهدابه .. نظرة جارحة كأنه تكشف الغطاء عن أى شيء ..

وأحست أنها فى حجم القطة .. شعرت بالضآلة ولأول مرة على هذا النحو .. وكان من الضرورى أن تكون أمها إلى جوارها .. لكن .. ليست كل التجارب تشارك فيها الأمهات .

بلى على العكس لاحظت أن أحدا لا يدخل عليهما ..

لكنها على الرغم من كل شيء أغمضت عينيها وأسلمت كفها ليده حين أمسك بها بكفه الكبيرة الطرية القوية .. وكانت شفتاه تتلمظان كأنه فرغ توا من احتساء شراب .. وخداه المملوءان باللحم فى شبه انتفاخ يبرق فوقهما نور الحجرة .. وشاربه العميق السواد يوائم شعره الفاحم اللابد على رأسه كأنه

قطعة من القار ..

وعندما أخذت يده تعبث بالخاتم فى أصبعها شعرت بالخوف .. حركه مرتين حتى منبت الظفر ثم أعاده إلى حيث كان .. وفى المرة الثانية قال لها بصوت هامس :

ـــ درية ..

ـــ نعم ..

ـــ متى ؟!.

ـــ متى ماذا ؟ « وكانت تعرف عن ماذا يسأل » ..

ـــ متى يوم الخميس ؟

فهتفت بصوت تشوبه البحة عادة عندما ترتفع درجته وقلبها يخفق :

ـــ صحيح .. متى ؟

ثم تجمد الموقف فى نظرهما كصورة على شريط .. صورة مسطحة لا عمق لها .. وقفت العجلة التى تديرها فبدت بلا حياة ولا عمق ولا سحر ، كأنما شلها الخوف ..

٢

فى اللحظات التى سبقت خروجها من بيت والديها إلى بيت زوجها كانت مقتنعة أنها عاشت فى أوهام .. عذبت نفسها .. فذلك الخاطر الذى خرج من القمقم كعفريت قد حدثت به أمها فى حينه على نحو ما يوم الخميس .. يوم كانت ذاهبة إلى منزل السيدة زينات صديقة أمها .. ترجع لها فستانا استعارته الأم لكى تفصل مثله .. ومرت على أبيها فى شارع السكة الجديدة فى دكانه الذى يبيع الخردوات .. وأخذت منه ريالا من الفضة لتوصله لأمها .. ثم وضعته فى جيبها المحاذى لفخذها .. ثم واصلت سيرها وفستان الست « زينات » ملفوف فى جريدة مشت تقرأ فيها .. وصورة فى صفحة الرياضة للملاكمة ــ يومئذ ــ شغلت بالها .. رجلان شبه عاريين فى يد كل منهما قفاز جعل منظر اليد ــ فى نظرها ــ مثل خف الجمل .. وكل منهما يكيل الضربات للآخر .. وتحت الصورة كلمات كبيرة أبرزها كلمة « انتصار » .. وتساءلت يومئذ .. « هل هذا انتصار ؟ » ..

كانت تقرأ ويدها على الريال .. ونصف وعيها للطريق .. كانت بنت اثنى عشر ربيعا .. نعم .. لا تزيد ..

وكانت فرحة بهذه المهمة .. إنها سترى العمارة الجديدة التى سكنتها السيدة « زينات » بعد أن أثرى زوجها فى التجارة وسترى الأثاث الجديد .. والموقع الساحر فى الطرف الآخر من المدينة ..

فى جيبها الأيسر على مقربة من فخذها وضعت ريالا من الفضة وفى جيبها

الأيمن حمص ملأت به جيبها من « مقلى الحرمين » بجوار دكان والدها .. ملأته بلا مقابل .. كانت كلما قالت صباح الخير أو مساء الخير لصاحبها الطيب الحاج « يحيى » يملأ لها جيبها بما تشتهيه .. ويومئذ ضحكت حين كانت تشتهى أن تأخذ ولكنها خجلت من أن تحييه .. ولكن عينيه العسليتين وقعتا عليها فى الشارع .. وناداها .. كطفل ينادى صديقه .. فقد كان محروما من الأولاد وملأ لها جيبها بيد يعلوها الوشم وهو يقول لها : « خذى بلا ثمن يا درية .. دون أن تقولى حتى صباح الخير يا عم « يحيى » .. خذى .. لا يهمك » ..

وأحست أنه يملأ جيبها حبا .. أحست أنه يفعل مثل الأب .. ويومئذ سألت الله : لماذا لم يعطه ولدا .. ثم .. نسيت . ومشت تأكل الحمص .. وتعبث بالريال .. وتحملق فى شبه قلق فى صورة المتلاكمين .. تملأ أنفها ورأسها رائحة شارع السكة الجديدة بضجيجه المألوف والريفيين الذين يسحبون نساءهم وأطفالهم فى طريقهم إلى ضريح « البدوى » ويزحمون مرور العربات ..

حتى إذا ما انسلخت عن هذه المواقع ووقفت للمرة الأولى أمام ما يسمى عمارة أخذتها الروعة .. كل شىء فيها مرتفع رائع .. « يا اه » ..

كان ذلك يوم الخميس ..

واليوم خميس ..

ولم يبق إلا ساعة وترتحل .. بدت فى عين « السيد » أخيها الصغير نظرة عتاب .. فلماذا ستتركهم ؟.. إنه يعلم أنها ستتزوج .. لكن لماذا تتركهم أيضا ؟!.. ملكية ما قبل الأديان والنظم الاجتماعية .. إنه يريد أن يدعها .. وقد غطى اليوم اسمها المنقوش على الحائط بورق الشيكولاته الملون على أنها زينة الفرح على حد قوله .. لكن كل هذا لم يكن يشغلها .. إنها تحملق فى أمها ..

إنها تذكر ما قالته لها عقب عودتها من عمارة الست « زينات » .. تذكرته الآن بالحرف الواحد .. أين النسيان .. هل بهذه الطريقة سيحاسبنا الله ؟! أن نتذكر كل شيء يخلق من حياتنا « سوقا » تملؤها النداءات والروائح والجنون .. لكن .. لسنا نتذكر إلا ما نحن فى حاجة إليه .. بل وأقل ..

ـــ آه يا ماما .. كنت أريد أن أقول لك كلمة ..

ـــ تعالى .. واحضنينى ..

قالتها بحنان وتعب وهى تبحث عن ريقها ..

ووقع بصر « درية » على الصدر الناحل وعلى الأخدود الذى يشقه .. ذلك الذى طالما انكبت عليه وهى طفلة .. فشهقت بالبكاء ..

ـــ أنا .. أنا خائفة يا ماما ..

ـــ آه كلنا نخاف يا بنتى ..

وكانت يدها تمر على ظهرها من خلف .. ونفسها مضطرب يكتم شهيقا يملؤه بالبكاء ..

ـــ قولى كلمة .. تطمئننى يا ماما ..

ـــ إنه .. شاب طيب .. إنه قوى تحبه النساء وستحبينه من أول أسبوع ..

وهمهمت بصوت فيه ضحكة وكلام وذكريات ثم ما لبثت أن انفصلت عنها لتقوم فتلبس ملابسها .. وفى تلك اللحظة رنت ضحكة عبقة تبعتها زغرودة من فم السيدة « زينات » صاحبة أجمل عنق فى نساء جيلها وأصفى لون وأعظم حظ وألين حديث ، وكأنما كان ذلك إيذانا بفتح المجال فامتلأ البيت بالزغاريد .. ثم أخذت « درية » فى ارتداء ملابسها البيضاء ..

* * *

كان البيت الجديد يقع فى شارع على مقربة من الطريق الرئيسى بين القاهرة والإسكندرية .. غير كبير الاتساع لكنه حافل بالحركة .. خصوصا بالنهار .. لكنه بالليل من الشوارع التى تهجع باكرا .. فليس فيه أماكن سهر ولا دور سينما ..

لذلك عندما انطفأت الأنوار على واجهة البيت .. تلك التى كانت تعلن عن الفرح استرد الشارع طبيعته الأصلية .. واستطاعت « درية » أن تراها لأول مرة بالليل وهى فى نافذة المطبخ .. قبل أن تدخل إلى حجرة النوم للقاء الأول وهى الآن فى قميص من الصوف وقد خلا البيت من الضيوف منذ ساعة وتقدمت خطا الليل ..

ورأت زوجها وهو يقفل باب الحجرة عليها فأحست بعزلة غريبة .. عزلة تكاد تسلمها لدوار ثم إغماء غير أنها تماسكت .. وأيا ما يكون وضعها فإن الغريب فى الدنيا حتى اليوم أن تكون المرأة فى موقف المنتظر .. لا تقول الكلمة الأولى ولا تبدأ بأول لمسة .. حتى اللائى تزوجن عبيدهن فى القرون الغابرة وقفن نفس الموقف .. لا بد أن تمتد يد الرجل نحو الوردة .. برعما كانت حديث العمر أو تم تفتحها حتى رأى الناس ما بقلبها كله ..

وتحسست يده خد عروسه .. ثم شعرت هى بجسمه الطويل يزحم الفراش .. جاوبته وهلة وهى منكمشة ثم قررت شيئا .. قررت أن تستسلم للموج فأمواج الليلة هى التى ستلخص القصة فتعلقت برقبته وأغمضت عينيها .. لحظات لم تكن فيها الصور المشهورة .. مطلقا .. حضرتها فيها ذكرى أمها وهى تلد شقيقها « السيد » .. آلام مخاض .. ثم سؤال عن النتيجة ولد أو بنت .. فهنا يقال أيضا بلا حروف ولد أو بنت ؟.. ومع هذا كله والدنيا برد ، عرق ورائحة كنفس التى شمتها فى الحمام .. ثم أرجوحة .. سريرها يهبط

بها ويعلو كأنها تترنح .. ثم فترة انقطع فيها الشعور تقريبا .. لم تعد فيها تحس بشيء .. تحلم أنها تحمل شيئا ثقيلا .. فى هذا الحلم القصير حلمت أنها مغمى عليها .. وأن إنسانا ما يعيد إليها حسها بشيء يحكه فى أنفها .. لم يكن إلا « بصلة » هكذا فى الحلم .. وفتحت عينيها على النور الخافت فرأت وجه « سلامة » مسامتا لوجهها وهى فى فراشها .. فصرخت بلا إرادة .. كانت رائحة البصل تملأ أنفها حتى الآن ولو أنها شمتها فى شبه حلم .. ثم دفعته عنها بقوة وبكلتا كفيها .. وعند ذلك جلس عند قدميها .. كانت فى هذه اللحظة مثل الأسيرة .. فى نفسها خوف شديد ..

وهناك رجل نصف عار يجلس فى الفراش .. مطرق .. وهى الآن كامرأة استردت نفسها من قرصان .. هكذا كان إحساسها ساعتئذ .. مع اشمئزاز وخوف .. كانت تريد أن تفرغ معدتها من الطعام .. ما لها تشعر بالذل والخوف والميل إلى القتال كأنها ليست فى غرفة عروس .. كأنها مغتصبة .. وكان وجهها مغطى بذراعها .. ومن تحت الذراع نظراتها تتسرب إلى زوجها الذى ألفته جالسا عند قدميها كما كان .. وظلت هى صامتة عن عمد فقد كانت تريده هو أن يتكلم .. لماذا هو صامت ؟!.. وعادت إلى أنفها الروائح المخلوطة .. وأحست بالدوار من جديد .. شعرت كأنها تصعد سلما أعلى من أعلى سلم صعدته فى حياتها فى عمارة السيدة « زينات » .. وعاودتها رائحة البصل فأفاقت ..

عندئذ سمعت صوته ينادى باهتمام :

— درية ..

نطق اسمها مخطوفا .. فنهضت جالسة .. وكان معنى جلوسهما أنهما صارا وجها لوجه .. فقام هو وأضفى على الحجرة مزيدا من النور .. وجلس فى

وضع جديد على حافة الفراش ..

كان يبدو غير طبيعي .. خداه منتفختان وشعره منفوش ونظراته الجارحة تتراوح بين الأسى والسخرية .. ينظر ذات اليمين وذات الشمال كمن يفتش عن شيء ثم ناداها :

— درية ..

نطق اسمها بنفس الطريقة ..

— نعم ..

لم يكن فى ردها خوف .. كان جازما حاسما قصيرا واضحا ، وليست تدرى لماذا .. كأنما كانت تتعجل فى معرفة ما هناك .. فأولاها ظهره وهو جالس على حافة الفراش ثم نظر إلى الأرض ثم قال متلعثما :

— إننى .. وجدت .. أقصد .. يعنى ..

ثم صرخ بأعلى صوته بعد أن استدار إليها :

— لم أجد شيئا .. إنها مصيبة ..

فصرخت بلا صوت .. ملأ الصراخ أذنيها حتى صار طنينا مع أن صوتا ما لم ينبعث من فمها .. وظل فمها مفتوحا على هذه الصورة والدموع تنسكب فى صمت .. ليس هناك إجهاش ولا نشيج ولا همهمة .. وظل هو يعض شفتيه على التوالى ، حتى صارتا فى لون الكبد ..

— هل كنت تحبين !..

وهزت رأسها بسرعة نفيا .. وعندئذ انبعث صوت البكاء كاستهلال المولود ينبىء بتحرك النفس .. وقالت بينها وبين نفسها : « يا ليت » .. غير أن هناك نوعا من القضايا لا يحلها النقاش .. فتركها وخرج صامتا .. وأقفل الباب وراءه بعنف .. وطالت غيبته فأحست أنه سينام فى حجرة أخرى ..



(البيت الصامت)

وبعد ساعة من الزمن أطفأت بقية الأنوار .. ثم فتحت شيش النافذة ووقفت من وراء الزجاج .. تتقاذفها الأفكار بطريقة الموج الذى عانته منذ قليل .. وتكاثف نفسها على الزجاج فعملت لنظرها دائرة بكفها .. وفطنت أخيرا إلى أنها فى الدور الأول .. وأنها تطل على ميدان .. وأن الشارع مرصوف بأحجار البازلت الرمادية المستطيلة .. وأن فى نهاية الميدان يقع سجن المدينة أمام عينيها هناك .. بأسواره وأسلاكه ونقط المراقبة فيه .. وأن الطلقة النارية التى سمعتها منذ قليل قبل أن يغادر .. من ؟! زوجها ؟.. قبل أن يغادر الحجرة كانت من تلك الطلقات التى يرسلها الحرس بالليل ..

ثم أخذت تفكر .. ماذا لو فتحت هذا الشباك ثم وثبت إلى الأرض مقلوبة .. ليتها أحبت .. إن أمها شريكة لها فيما حدث .. فمنذ عشر سنوات كان الأمر ممكنا أن يشرح .. وحتى ليلة أمس أيضا ..

لكن .. هل هناك شيء يسمى النسيان ؟! شعرت « درية » أنه أحيانا يكون عملا إراديا وعندما يكون النسيان إراديا فإن التذكر يكون صدمة .. وعضت أناملها فى ندم .. بكت وأنفاسها ترسم على الزجاج دموعا .. وتمنت ألف مرة لو عاد الماضى .. وحملقت فى النوافذ البعيدة لذلك البناء الخشن .. كلها صغيرة مطفأة سوداء .. نوافذ سجن !!. ثم أحست بالرثاء العظيم لبعض قلوب تنام هناك .. هى على التحديد قلوب الذين لم يرتكبوا جريمة .. أولئك الذين دخلوا ظلما إلى هذه المقبرة ..

ثم .. تصورت أنها تنال جزاء حقيقيا على شيء فعلته .. فلماذا عساها كانت الآن تعانى ؟!.. ندم مطهر .. يكسر من شوكة الغرائز ..

وعادت إليها رائحة البصل .. والآجر والأسمنت والحمرة .. ودخان خشب أشعلت فيه النار .. ووقفت حائرة عند عتبة الباب .. هل تذهب

إليه ؟! تقول له .. ماذا ؟! .. وعندئذ شعرت بحاجة إلى ضحكة . إنه يقظ ولن ينام .. وفى الصباح سيكون شيء ما .. لكن .. هل ستظل واقفة هكذا حتى الصباح ..

إنها تحس بالتعب .. ومشت نحو السرير .. لكنها أحست فجأة بعدما وصلت إليه أنه ليس من حقها أن تصعده .. لماذا تنام فيه ؟! .. لقد فرش لاثنين بشرط مفهوم دون أن ينطق به أحد .. وقد اختل هذا الشرط ..

وألقت نفسها ترقد على الأرض المفروشة .. فأحست برطوبة البلاط .. لكنها استعذبتها .. حتى راحت فى النوم .. فلم تستيقظ إلا على شعاع يسقط على خدها وعلى فتحة باب الحجرة ووجه « سلامة » يطل من فرجته ـــ وقد أمسك بأكرته ـــ بعينين منتفختين وشعر منفوش ..

نهضت من رقدتها وجلست تنظر إليه ونظر هو إليها دون أن ينبس أحدهما بكلمة ..

ثم ما لبث أن أغلق الباب عليها وانصرف ..

٣

قرر هذا اليوم ألا يفتح الباب لأحد وقد أنهى إليها هذا القرار بعد ساعة .. راعها أن تراه وكأن علامات المرض بادية عليه ، أما هى فقد رأت نفسها من خلال أحزانه .. وبدأ جرس الباب يدق وناس يهمهمون ثم ييأسون ويرجعون .. شعرا معا فى وقت واحد أن وجوه الناس أفظع شيء يرى اليوم .. أمسك بيدها فانسحبت معه .. وفى حجرة أخرى جلس الاثنان فى جو معتم غير واضح .. وجهان قلقان .. ورجل يستفسر وهو مقتنع مقدما بأن كل ما يقال بهتان ..

وعادت تتذكر الحقائق .. وودت فى صميم نفسها أن تبوح بها لكنها كانت واثقة أن الكذب الموزون أقرب إلى التصديق من الصدق المشوش .. وهى غير قادرة على أن تقدم كذبا مرسوما ببراعة .. الكذب الذى عندها فج لن يصدقه بسهولة رجل عاش فى المدينة وعمل فى القطارات وقرأ الوجوه وكل شيء منه يوحى بأنه قد جرب ، والوعود أرخص هدية تقدم فى الأزمات .. ولذلك عندما جلسا على كرسيين متقابلين ونظر إليها طويلا وقد ملأ الانفعال وجهه المكور وسألها عن الحكاية .. صمتت .. وعاودها فلم ترد عليه .. أحست بشبه إلهام أن التذلل لن ينتج وأن تصديق ما ستقوله رهن بالقوة التى ستتسلح بها .. لكن .. بماذا ستتسلح ؟ تسلحت أولا بالصمت ، حتى ثارت ثائرته وقام فهزها من كتفها وأمسك شعرها وشده وطوق رقبتها بكفيه كأنه يهم أن يخنقها .. كانت الغريزة وحدها هى مصدر

إلهامها .. وبنفس الطريقة التى عرفت بها المرأة الأولى معنى نظرة الحب أو التخاذل وفسرتها كانت هى تراقب موقفها .. ويدق ناس جرس الباب وينصرفون .. وهى فى مكانها كتمثال متمرد .. تغرق وجهها بدموعها وتدعه يجف .. ويقوم هو فيدخن بعيدا ويعود تفوح منه نكهة التبغ ورائحة الغضب ويجلس على الكرسى كمحقق ينصب شركا :

ـــ أقسم لك أنك .. إذا ذكرت حقيقة ما حدث .. فإننى ..

بدا وجهها أنها ستتكلم ، فاعتدل فى كرسيه كقائد يتلقى أنباء أول اشتباك فأخذت تبلع ريقها بصوت مسموع شأن من يعانى جفاف الحلق ، فنهض سريعا وعاد إليها بكوب من الماء ..

نظرت إليها مليا وهى تأخذه من يده وأحست أن قواها ستخور .. وأنها ستنفجر فى بكاء هستيرى لكنها تماسكت وجرعت عدة جرعات وتعمدت أن تمد يدها إليه بالكوب مرة أخرى فأخذه فى رضا ووضعه على شىء بعيد ، وعاد فجلس منكفئا إلى الأمام ليسمع .. جاء صوتها واهنا .. أخيرا ..

ـــ كل الذى قررته أن نعيش هكذا .. معا .. فى صمت .. حتى تمر فترة معقولة .. ممكن بعدها .. أن تصدق ما أقول .. أو ..

فأخذه شبه غضب :

ـــ يا سلام .. أهو من الغرابة إلى هذا الحد ؟!..

فهزت رأسها بالإيجاب وأطرقت تنظر فى أظافرها .. فسأل :

ـــ والناس .. هؤلاء الذين يدقون بابنا كل ساعة ..

ـــ نتحمل يومين .. ثم .. نتصرف ..

فعاد يسأل فى إلحاح وبصوت خفيض هامس واضح النبرة :

ـــ كل ما أريد معرفته هو .. هل هناك من سبقنى أولا ؟

ـــ أنت الذى تسأل عن هذا لا أنا ..

فلم يفهم قصدها وصرخ :

ـــ مجنونة ..

وشد شعر رأسه وهو واقف فلم تتحرك من مجلسها .. ودق جرس الباب ملحا طويلا ثقيلا .. فنظر إليها قائلا :

ـــ سامعة ؟.. ماذا ستقدمين إليهم ؟ « وقهقه » ..

ـــ تفاديا للأخطاء أرجوك أن تتقيد بكلمتك .. خير لنا أن يظلوا بعيدا عنا .. لك .. ولى ..

فأدار ظهره وخرج .. وظلت هى على كرسى الاعتراف كما كانت تذكر الكذب الذى لا يقبل لأنه فج والصدق الذى يمكن أن يزين .. لكنها غير قادرة على خلقه الآن .. إنها تريد تدريبا .. وكل ما فيها الآن أنها استعانت بأسلحة الدفاع التى استعملتها المرأة الأولى قديما .. لكن فى معركة جديدة ..

* * *

ومضى اليوم بلا طعام ولا شراب .. ودخل الليل .. كانت لا تزال حيث كانت .. توقفت كل حاجاتها كجسم يتحلل وخيل إليها أن من الممكن أن تظل هكذا حتى تموت .

وبدا للزوج ظل مشكلة فهو إن أشعل النور عرف الزائرون أنهم بالداخل وإذا لم يشعلوا النور لعب الشك بقلوب الطارقين من الأهل وظنوا أن مكروها حاق بهم وسيؤدى الأمر إلى إجراء آخر لا يخلو من الضجيج ..

وأنهى إليها هذه الأفكار وهما فى الظلام فقالت له :

ـــ والحل ؟!

رد مؤنبا :

ـــ تسألينني ؟!

فقالت بعد قليل :

ـــ أشعل النور .. ونمثل قليلا .. وفى آخر الليلة .. نرى ..

وأحس أن آراءها مستقيمة تصدر عن عقلية بدأت تفكر ..

عقلية فتاة تعلمت التطريز والتدبير وتركت المدرسة وأقامت فى البيت .. لكن التصرف فى الأزمات موهبة مستقلة .. ربما بحكم التمرس أو ربما بسر الإلهام ..

وأشعل النور فى الشقة .. وبدأت بهجة العرس فيها صامتة .. لا شىء يناغى شيئا .. فكأن كل قطعة أثاث تعطى ظهرها للأخرى كما فعل العروسان ..

ودق الجرس طويلا مرحا كأن من بالخارج يقول به لمن فى الداخل .. للعروسين .. « افتحوا كفى حبا » ..

وعلت قهقهة أول الداخلين ثم دخلت أم العروس .. كان أول شىء عملته « درية » أن خطفت انتباهها محولة إياه إلى اتجاه آخر .. وارتمت فوق صدرها باكية تنشج وتقول : « أوحشتنى يا ماما .. يا ماما » ..

وحضنتها أمها وفاح منها حنان .. ولم تلبث أن مالت على أذنها وهمست للعروس : « هيه ؟! » فجاءتها كلمة واحدة منها .. « لا » .. وعم البيت هرج ومرج .. وقام الزائرون من الطرفين بإضفاء بهجة طارئة على الصنم الصامت .. على هذا البيت .. ثم ما لبث الحاضرون أن تبادلوا النظرات بقلق هو دعوة إلى الخروج .. فعاد الصمت من جديد يظلل على المسكن ..

لجأت « درية » إلى الحجرة الداخلية المطلة على الممر الفاصل بين بيتين متخذة مكانها الأول ودخل هو وراءها فأطفأ النور ..

جلس على مقربة منها وبين أصبعيه سيجارة جمرتها تتوهج فى الظلام .. ورائحة التبغ تبعث فى الفتاة ضيق النفس .. سعلت قليلا فكأنما تنبه لوجودها .. وعندئذ قال فى لهجة حكيمة بالغة الرزانة :

ـــ تأكدى أننى « لا أجر رجلك » .. تأكدى أننى بعد أن أعرف سيمضى كل شيء بيننا معقولا ..

لكن .. أخذت الفتاة توازن بينها وبين نفسها عن آثار اللهجتين .. كان غضبه يفزعها فلم تصدق وعوده وكذلك فعل بها الهدوء .. بدا فى الحالة الأولى محاربا وفى الثانية جاسوسا .. أو صيادا شبكته من التغافل .. لكن .. لا بد أن ينتهى الموقف فقررت أن تلقى بالكلمة هكذا كما يفعل المنتحرون .. فقالت بدون ترتيب وبصوت خال من التناسق :

ـــ كنت ذات يوم فى « المسروقة » فى بيتنا ..

فرد متلهفا :

ـــ عال .. عظيم .. هيه ..

توقفت قليلا ثم استطردت :

ـــ صعدت إليها بسلم خشبى طويل .. لعلك تعرف أنها مرتفعة وأن لها شباكا حديديا يطل على المنزل المهجور .. و ..

ـــ عظيم .. عظيم ..

وبلغت جمرة السيجارة غاية التوهج فى نظرها .. فرماها وداسها .. وسعلت هى ثم أكملت :

ـــ و .. أذكر أن أمى أمرتنى أن أصعد بالسلم الخشبى إلى « المسروقة » لأبحث عن طارة غربال مخروقة كنا نريد تجديده .. و .. ثم ..

ـــ لماذا سكت ؟

— شيء مخيف ..

قال بشيء من الاستخفاف :

— هل وجدته هناك فى المسروقة ؟!

ردت بصوت واهن :

— نعم ..

فرد متغافلا :

— يا آه ..

— دخل من الشباك المطل على الخرابة .. وظل .. لا بدا حتى صعدت أنا ..

— ألم تقولى أن الشباك له حديد ؟

— ممكن أن يمر من بين القضبان ..

— يا سلام .. « ولم يخل رده من الاستهانة » ..

— ماذا فهمت ؟!

— ما قصدت إليه ..

— إنك لم تفهم .. لقد كان ثعبانا كان مكوما بين الأشياء المرمية هناك .. فلما لمسته يدى رميت نفسى من فوق .. لعل هذا هو السبب ..

وظلل صمت طويل متململ .. من نوع لم يخطر على بالها قط بعده انبعثت ضحكة مرة .. صغيرة كبذرة الحنظل .. عاد بعدها الصمت أخف وطأة لكنه ملىء بالحنق .. ثم جاءتها كلمة فى الظلام الذى نشره هو عمدا على الحجرة ليشجعها على الحديث ومنه عرفت كيف يتحدث العميان .. قال :

— هيه .. كنت واثقا أنه ثعبان ..

وبدا عدم التصديق فى لهجته .. ولم تستغرب فهى لم تقل الواقع من أول

مرة .. هل كان ذلك صوابا ؟!.. لقد تحيرت فى الحقيقة فإن اللقاء الواقع إليه كان مرفوضا فكأنها أحست أن الطريق يجب أن يمهد بشىء من التزوير .. فالرفض لكل ما يقال من سيما هذه الحالة .. ولن يصدق شىء ما بسهولة .. حتى الحقيقة ..

هتفت بتعب :

ـــ لم تصدق ؟!

ـــ القرويات الساذجات لا يقلن شيئا مثل هذا « العبط » .. إيه .. لا أذكر أن واحدة قالت إننى سقطت من فوق شجرة .. لكن .. على كل حال .. إنه ثعبان .. لم تكذبى .. يجب أن يصدق هذا ..

فبكت بحرارة .. تذكرت شيئا من التفاصيل .. كان الجو شتاء أيامها .. ورائحة الرطوبة تملأ البناء الجديد .. والسيدة « زينات » تسكن الدور الأول .. و ..

وسمعت صفيرا ، كان صفيرا حزينا منغما اكتشفت أنه صادر من فم زوجها .. انهار شىء فى داخلها فكفت عن البكاء إذ تصورت أنه كان من الممكن ـــ لولا ما حدث ـــ أن يصفر لها لحن حب مشهور ..

ولما كف عن صفيره قال منددا :

ـــ ثعبان ؟! عال .. عرفنا يا « ستى » أنه ثعبان ..

وقام واقفا وأشعل سيجارة أخرى فرأت وجهه فى نور الثقاب .. وجه قاس تحت وهج النار .. استدارة تكاد تكون انتفاخا وشعر فى لون القار .. وجلس :

ـــ آخر ما عندى .. هو أننى سأعود غدا إلى عملى فلا داعى للإجازة .. وسأتركك فترة .. بعدها ربما كان قرارى قاسيا وربما كان رفيقا .. وممكن

لأجل أن ترتاحى أن تدبرى كذبة جديدة خلال هذين اليومين .. سعيدة يا ست « العرايس » !!

* * *

وفى صبيحة اليوم التالى رأته يلبس ملابس العمل .. بذلة كمسارى بالسكة الحديد .. وفاحت منه رائحة عطر بعد أن حلق ذقنه .. كان يمثل دور الرجل السعيد أو على الأقل الرجل الذى لم يغش ..

ولما وصل إلى المكتب ليعلن أنه قطع إجازته جلس يسأل نفسه عما عسى أن يفعله عندما يعود إليها .. أحس بشىء من الشفقة فخاف .. خاف أن يضعف .. تذكر والدها الذى يقود كل يوم جمعة نصف تجار الشارع ماضيا بهم إلى ضريح « البدوى » ليصلوا هناك .. ووجهه الطيب ، وأمها التى تجيب عن كل شىء بنعم .. لم تعرف معنى المعارضة ولا النفاق فى حياتهم قط .. لكن : « هذه الفتاة تبدو من نوع خبيث .. إنها تحمل الموقف بشجاعة من يتلقى عقابا يعتقد أنه يستحقه » .. ولكنه لم يسأل نفسه عن ماذا تفعل « درية » إذا رفضت العقاب فى الحال ..

وسمع أمر رئيسه بالذهاب إلى خط البرارى .. وحشة فى وحشة .. وإذن سيبيت الليلة خارج المنزل .. أو يعود فى أخريات الليل ..

وأحس براحة يشوبها حزن .. كمن دفن عزيزا عذبه المرض . تنتمى إلى الشيئين بالتساوى .. وركب القطار ..

وفى هذه اللحظة كانت « درية » تأكل بلا شهية ، وفجأة سمعت جرس الباب .. بدا لها أن يدا سعيدة تدقه .. « ترى من هذا ؟! » .. وعندما وقفت خلف باب شقتها المصمت لم تفتح فى الحال لكن قلبها أحس أنه إنسان عزيز بدأ يدق الباب من أسفل بمقدم حذائه ويغنى .. إنه شقيقها « سيد » ..

وفتحت وتلقفته بين أحضانها وأخذت تقبله ودموعها محبوسة أما الصبى فقبلها فى خدها ونظر إلى الأرض لينبهها أن شيئا تبعثر .. كان قد ملأ جيبه بالحمص — كما كانت تفعل هى — من مقلى الحرمين.. وأفلتته وجلس يجمع الحب ثم دخل قبلها إلى حجرتها يفتش فيها عن شىء من الحلوى .. أما « درية » فقد كانت فى الوقت الذى كان أخوها فيه يثرثر ويأكل — تفكر فيما عسى أن ترسل به إلى أمها ، عليها أن تقول لها شيئا لتحس أن المشكلة موضوعة بين اثنين .. وعندما تمر هذه الفترة — إن مرت — فعلى « درية » وحدها أن تدبر أمرها ..

وأفاقت على صوت أخيها :

— ماما تعاركت مع الجيران من أجل الجمعية ..

— هيه ..

كان يتكلم كمن يقرأ مكتوبا :

— وخالتى « زينات » أعطت لماما نقودا أمس ..

— هيه ..

— وبابا أرسل قميصا من الدكان لـ « سلوى » أختى فغضبت وبكت وتعاركت معها ماما ..

وأشار إليها بيد ملوثة بالحلوى فسألته :

— ولماذا غضبت « سلوى » على القميص ؟..

— لأنه كان مقطوعا من الأمام .. وحمله « بابا » فقالت « ماما » : « البايرة لبيت أبوها » .. فبكت « سلوى » لأنها لا تحب إلا الجديد ..

ذهب « سيد » إلى دورة المياه ليغسل يديه على الحوض ويقلد صوت أبيه وحركته فى الوضوء بصوت عال تعمد أن يصل إلى أخته لكى يضحكها :

« إحم إحم .. أستغفر الله العظيم .. إحم إحم .. فوطة يا بنت يا « درية » .. الحمد لله الحمد لله .. » ..

أما « درية » فقد كانت فى شغل بنفسها .. وأوقفها حادث القميص موقف تفكير سارعت بعده إلى صوان الملابس وأخرجت شيئا لفته فى ورقة ووضعته إلى جوارها حتى إذا ما هم أخوها بالانصراف أعطته اللفافة لكى يوصلها لأمها .. لا أحد غيرها .. ويقول لها : « سلامة وجد القميص هكذا » ..

وعندما أخذت الأم اللفافة من يده كانت لا تستطيع أن تخمن ما معنى هذا وعندما فحصت قميص « درية » ألفته مقصوصا من الأمام قصا مستديرا حديثا بفعل يد ، فوضعته أمامها وأخذت تستعيد ما قاله ابنها « هكذا وجده سلامة » ، ودقت صدرها : « هل هذا قصدها ؟! » ..

و لم تدر ماذا لبست .. خرجت تهرول إلى بيت « درية » .. وانكفأت على السلم عدة مرات ثم دقت الباب بقبضة يدها فعرفت « درية » من الطارق .. واندفعت الأم من فرجة الباب قبل أن يتم فتحه كأن أحدا يطاردها ، ثم ردته وراءها بظهرها ودخلت إلى أقرب حجرة وجلست متهالكة تكاد لا ترى شيئا ..

وجلست أمامها « درية » فى صمت .. لم تسأل البنت أمها مالها ؟ فعرفت الأم أن بنتها فى حاجة إلى سؤال .. كل شىء فيها منطفىء ووجهها حائر كغريب انقطع به الطريق ..

وأخذت الأم تفحصها من أعلى إلى أسفل : استحال البياض شحوبا وهناك احمرار على الخدين تحت العينين .. وعيناها المرحتان أخذتا تعبيرا حزينا لا يخلو من القسوة .. قسوة من يريد أن يبطش بشخص لا يعرف من هو ولا أين

هو .. ولم يكن فى وجهها زينة ولا هى منسقة الهندام .. ثمرة كاملة النضج ملقاة على أرض متربة .. وجسمها العبل الذى يشبه جسم النحلة متهالك فى كل حركاته . متعبة .

ثم سألتها أمها فى هلع بعد أن استردت أنفاسها :

ــ ما حكاية القميص .. هل هى نفس الحكاية ؟!

فأومأت بالإيجاب وفى عينها نظرة الثمرة المحبوسة ، فهتفت الأم :

ــ يا نهار أسود .. أدركينى .. بكوب من الماء !!

شربت الأم ورشت ما بقى من الكوب على وجهها وصدرها وشعرت أنها الآن وجها لوجه أمام مشكلة أقوى من قواها .. حارس خدع .. ضاع منه شىء ليس له عوض ..

ــ احكى كل ما حدث يا مجرمة !!

فغرت فمها وصمتت ثم همست بحنق !!

ــ حتى .. أنت .. يا .. ماما !!

فصرخت الأم :

ــ احكى !!

ــ هل تذكرين يوم الخميس .. يوم أن ذهبت إلى مسكن السيدة « زينات » الجديد .. ثم عدت فقلت لك .. وقلت لى ..

ولم أتبين شيئا إلا يوم الخميس الماضى ..

صمتت الأم وأخذت تتذكر .. وضعت سبابتها على صدغها ثم نقلتها إلى فمها وعضت .. ثم عادت فوضعتها على صدغها .. لم تكن تذكر شيئا واضحا تماما .. كلما مالت إلى نقاء صحيفة بنتها تذكرت الوقائع ، وكلما مالت إلى العكس دخلت هذه الوقائع فى ضباب وأصبحت لا تذكر شيئا مطلقا ..



وظلت هكذا حتى أحست بالدوار .. ثم .. وفجأة لطمت « درية » على خدها لطمة تركت آثار الأصابع وصرخت فيها :

ـــ هل أنت متأكدة أن أحدا آخر .. لم ..

لم تبك « درية » فى هذه المرة : فطنت إلى أن اليد التى يطلب منه العون لطمتها الآن فهربت الدموع .. وعادت تذكر « سلامة » وسخريته القاتلة ، وتتصور ماذا عسى أن يقول إذا ما قصت عليه القصة الحقيقية التى سمعتها أمها الآن و لم تصدقها ؟!

وظلل صمت ودت أن يكون صمت الأبدية .. قالت بعده الأم بليونة تمثل الوجه الآخر للقسوة التى صدرت منها :

ـــ « درية » .. أنا أمك .. ساعدينى لأساعدك ..

فابتسمت « درية » .. هذه هى أمها تفعل نفس ما فعله الزوج .. ظهر مقاتلا ثم ظهر جاسوسا إذ راوح بين القوة والحيلة ، و لم ترد الفتاة وقالت الأم :

ـــ وتبتسمين ؟!

ـــ بكيت .. وضحكت .. فلم يبق إلا الابتسام ..

ـــ إنك غير مبالية .. لست بنتى .. سأقوم وأعود إليك غدا .. فكرى عسى أن تقولى الحقيقة ..

وبعدما خرجت الأم أخذت « درية » تبحث عن دمعة فلم تجد ينبوعا للدموع ..

* * *

أما « سلامة » فقد تلقاه بعض زملائه فى قطار البرارى بالدعابات المألوفة ومشى كل شيء مشيه العادى .. وجوه الناس فى الدرجة الثالثة التى عاشرها

أكثر من عشرة أعوام .. تلك الوجوه العارية من الأقنعة .. ما له اليوم يرى ما تحت بشرتها .. يستشف أفكارها كأنها تحت عدسة .. هل صهره ألم ليلتين ؟..

وجلس على صندوق خشبى على مقربة من ظهر إحدى المقاصير وجعل يفكر : « إذن ماذا ستكون هى ما دام أمرى أنا هكذا .. كل ما يؤلم أنها كاذبة .. هل أنا مخدوع ؟!.. وهل هذه أول تجربة وآخر تجربة .. يعنى فرصة الخداع ؟!.. » .

وقام منتفضا خائفا من هذه الأفكار .. أراد أن ينصرف عنها .. أحس أنها الآن تأكل على الأقل وتشرب وتكف قليلا عن البكاء ..

« ما كان أروعها فى تلك اللحظات اليتيمة ! » وشعر بحاجة إلى الدموع .. فعادت إليه صورتها مثل قطة بلا مخالب خائفة تندس فى أعطافه مغمضة العينين ..

كان فى شباك القطار ساعتئذ والأرض الجرداء ذات الخنادق والغاب والحلفاء تنطوى إلى الوراء كبساط شيطانى .. وتأوه .. ورأى بعض الطيور الجارحة تحلق فوق الماء الراكد .. وسمع أصواتا وحشية متخاذلة لكائن يؤكل .. فذكر كلمة « ثعبان » !!

عض شفته .. ومشى فى الطرقة الضيقة المفروشة بمشمع أخضر متآكل تلك الواقعة بين حائط القطار وأبواب المقاصير .. مشى وهو يحس أنه يتعذب .. ماذا قال لها ؟ كأنما ارتدت إليه كل الآلام .. وبدأ يتشكك فى نفسه .. ربما كان قد قام بعمل غير متكامل فظلمها !!.. وسمع طلقة نارية خلال البرارى فخاف كأن الرصاص مصوب إليه .. عندئذ أيقن أن التعاسة تعدى .. إذن .. لقد أعدته بتعاستها .. لكن .. من يدريه أنها تعيسة .. لماذا

لا يكون هناك من خدعها وعندئذ شعر بميل إلى الكيد .. لماذا إذن لا يربطها فى شجرة الكره حتى تحرم من ظلال الحب .. لكن .. « هل كان ما فعلته قبلا تمثيلا فى تمثيل ؟ » ..

واستمر يعبر الطرقة .. وعبر من عربة إلى عربة .. ألفى نفسه فى عربات الدرجة الثالثة المزحومة بالركاب.. وكان أحد زملائه فى الطريق إليه وعلى وجهه دهشة وضحكة احتقن منها وجهه وناس قد تركوا كراسيهم والتفوا حول إنسان .. أيقن أن حادثا ما قد وقع .. ولكن بدا من وجه زميله أنه حادث غير سيئ ، فسأل « سلامة » :

— ماذا هناك ؟

سحبه زميله من يده وهو يقول :

— تعال .. تعال بنفسك ..

وهناك كان ناس متحلقين حول قروية جاءها المخاض .. وكانت وحدها .. فصرخ فيهم بكل قواه :

— أبعدوا الرجال ..

ثم نادى على عدة نسوة ونقلوها إلى كشك فى آخر العربة فيه فرملة القطار وأشياء أخرى .. وترك معها امرأتين وأقفلوا عليهن الباب ..

وكانت المرأة فى الكشك الصغير فى آخر العربة .. نظر أحد الريفيين المرحين إلى « سلامة » قائلا له :

* * *

— يا حضرة الأفندى ..

— نعم ..

— تعال نتراهن .. ماذا ستلد هذه المرأة يا مدير المستوصف « وضحك من

حوله شبان وأولاد » ولد .. أو بنت ؟

رد « سلامة » بفتور وعقله فى ظرف آخر من المشاكل :

ـــ بنت .. كلب يا برهومة !!

ومن خلال اللفظ والضحك على خلع اسم برهومة على الشاب الذى لم يكن اسمه كذلك قال ذلك الشاب :

ـــ ولد وحياة عينيك . وسيكون كمسارى بإذن الله ..

وضحك وضرب أرض القطار برجليه ورمى بالتذكرة الخضراء فى وجه أحد مصاحبيه فى السفر ..

وتركهم « سلامة » ومشى .. أعادت إليه كلمة « وحياة عينيك » ذكرى عبقة .. فيها صوت ناعم ملىء بدهاء يشبه الطيبة .. يوم حملقت « درية » فيهما لترى من سينظر فى عينى الثانى مدة أطول .. مباراة سحرية كان كل منهما يرى طيفه فى حدقة الثانى وبدت دلائل الانهزام على شفتها التى كانت قريبة منه يرى شقوقها التى لم تغط بدهان .. على هذه الشفة بدت بوادر الهزيمة فضحك يومها وغطت عينيها بكفها .. هاتين العينين اللتين لم يقدر له أن يرى خياله فى حدقتيهما بعد .. « يا إلٰهى !! » وتنهد ..

كان فى السماء سحاب .. وخمائل الحَلفاء والغاب تتماوج مع ريح لينة لم تشتت شمل مجموعات الطيور التى تحلق فى سماء المنطقة .. وكل شىء حوله يوحى بالجفاف والقسوة وحدوث حوادث ليست فى مواضعها .. كولادة امرأة فى قطار ..

وعاد إلى العربة ومر على الكشك ..

كان كل شىء قد انقضى .. وتحول نصف ركاب العربة على الأقل ـــ إلى حموات ـــ يسألن عن نوع المولود .. كان اهتماما أشبه بأنباء المباريات ..

وخرجت إحدى المرأتين وأعلنت أنه « غلام » وعندئذ ضجت المجموعة التى فيها « برهومة » .. وزعق برهومة هذا وهو يفتش عن « سلامه » ..

ـــ يا حضيرة .. يا حضرة .. مبروك عليكم الكمسارى الجديد ..

وعبر « سلامة » لا يرد .. كان قد ألقى نظرة على وجه الوالدة فرأى الهزال والجهد والسعادة .. واستطاع أن يتصور مدى فرحة الأمهات بمثل هذه الأحداث .. وتذكر « درية » ثم تصورها فى مثل هذا الموقف .. وعندئذ قرر شيئا ..

ومضى اليوم .. دخل الليل .. ومضى منه جزء فانتهت وردية « سلامة » .. رأى نفسه يشق طريقه نحو البيت ..

فى مدخل البيت قطط تتعارك فى شبه اتفاق .. صعد السلم وأدار المفتاح فى الباب ، ودخل .. لم يشم رائحة إنسان ولا نفس فبدأ يشك فى أنها تركت المسكن .. وعندئذ وقف وقد أقفل باب الشقة بالمفتاح .. كان المطبخ إلى يساره فدخل .. ألفى هناك كل شىء مرتبا .. ليس فيه أثر لإنسان أكل أو أعد طعاما .. أهكذا تتخلى روح « السكن » عن بعض البيوت المسكونة ؟ ، وزفر .. مشى نحو حجرة النوم ففتحها وأضاء نورا .. وكأزهار من الورق بدا كل شىء أمامه .. أو كمنظر أثاث فى صالة مبيعات .. والحجرة خالية .. لم يستشعر فيها نكهة جسم ولا روح ، من تلك القوة الإنسانية التى تمتزج حتى بأحجار الآثار ..

وخرج سريعا من حجرة النوم إذ أحس بوحشة التفرد .. ظمىء إلى أن يسمع صوت إنسان .. ولو عدوا .. ودلف بسرعة إلى الحجرة الأخرى حيث كانت تعترف .. حيث ذكرت قصة « الثعبان » فأشعل نورا .. وحملق وهو لا يصدق ما يرى .. رآها متكورة على حشية مبسوطة على الأرض وقد انحسر

الغطاء وتزحزح القميص حتى ركبتيها .. أيقظها النور فنهضت مذعورة .. من راقدة إلى واقفة دفعة واحدة وهى تسأل كأنها خرجت من حلم سخيف « من » !..

حملقت فيه ثم استردت وعيها وذكريات الأمس .. فأخذ وجهها السحنة القديمة أما هو فكان متعبا .. وكان يريد أن يقول لها ماذا قرره لكنه شعر أن ذبح الطائر الجائع شيء كريه .. كانت عمته فى القرية تطعم الدجاجة قبل أن تذبحها فكأنما هو اعتذار الإنسان المتمدن عن الإنسان الوحشى القديم .. وكانت عمته تخرج نفس الحب من حوصلة الدجاجة بعد دقائق وهى تنظفها للأكل .. هكذا !!

ظلت واقفة على الحشية واللحاف حول قدميها ، كأنها بانتظار شيء يحدث ، عندئذ قال لها :

ــ لماذا ترقدين على الأرض ؟!

فنظرت أسفل قدميها وهمست بصوت مبحوح :

ــ أين الأرض ؟

ــ أقصد لماذا لم ترقدى على السرير ؟

فنظرت فى وجهه :

ــ وأين السرير ؟!

فهم قصدها .. كانت لا تريد أن تعترف بسريرها كفراش لأنه فقد الروح الأصلية .. وعندئذ أحس بميل إلى الكلام على الرغم من اشمئزازه فجلس على الحشية ومدد رجليه مسندا ظهره بزاوية إلى الحائط وقال لها : اجلسى .. ففعلت ..

كانت بادية الهزال .. وذكر المرأة التى ولدت فى القطار .. فقال لها كمن

يسأل عن السياسة :

ـــ ليس هناك جديد ؟

فهمست :

ـــ من أين ؟

طحن أسنانه بعضها ببعض وقال :

ـــ فى القصة .. قصة آ ..

ـــ غدا نتكلم ..

ـــ أنا سأنام على هذه الحشية فاذهبى أنت ونامى هناك .

هزت رأسها نفيا ..

فهتف بجفاف :

ـــ ماذا تقصدين ؟!

نظرت إليه طويلا ثم انسحبت خارجة من الحجرة متجهة إلى المطبخ حيث جلست على كرسي بالمقلوب وأسندت جبينها على مؤخرته .. حتى إذا ما أهل الصباح أخذت تجول فى الشقة على غير هدى .. وبعد ساعة سمعت سعاله الذى ينبىء عن الإفراط فى التدخين ينبعث من وراء الباب .. تعلقت به عيناها فإذا به ينفتح ويخرج منه بوجه مستدير منتفخ مصفر وينظر إليها ولا يتكلم وأسنانه صفراء .. كان فى طريقه إلى دورة المياه .. وعندئذ انتهزت الفرصة ودخلت هى الحجرة التى خرج منها ..

٤

كل ما كانت تتمناه الأم أن يطول الموقف وألا يسارع « سلامة » بقطع الحبل فإن المسألة فى نظرها أوسع وأكثر شمولا ..

لذلك فقد عادت إلى « درية » فى اليوم التالى .. عندما كان هو فى قطار البرارى .. رأتها الفتاة فشعرت بعطف عليها .. خيل إليها عندما رأت أمها أنها هى صاحبة المشكلة الأولى لكنها على الرغم من كل شىء فقد كانت « درية » تنظر إليها على أنها منقذة ومسئولة ..

وجلست الأم وقالت للفتاة وعيناها تكادان تنهشانها :

ــ لقد دبرت الأمر مع أبيك !!

ــ أبى ؟! هل قلت له ؟!

ــ نعم يا ملعونة .. ماذا كنت تظنين إذن .. أليس هو والد بنات أخريات .. افهمى !!

تلعثمت « درية » وهى تقول :

ــ أريد أن أعرف أولا : هل صدقت أنت ما قلته لك حول الموضوع أولا ؟

هتفت الأم بسرعة من يريد أن يتخلص من جثة :

ــ لا يهم .. المهم أن ..

فبكت درية :

ــ إذن فكيف يصدقنى هو ؟!

ـــ اسمعى .. ليس هناك وقت .. وكل يوم يمر هو فى مصلحتنا .. وإذا كان ما قلته حقا فلسنا غشاشين .. أبوك رجل يعرف الله وقد عرفه الله .. وأمك مسكينة .. وأخواتك من ورائك فلا بد إذن أن تستميتى فى سبيل البقاء هنا .. فى بيت « سلامة » .. وسأتظاهر بأننى لا علم لى حتى يقول لى هو .. وعندئذ .. آه ..

وعضت المرأة أصبعها ونظرت « درية » إلى أمها .. أدركت فى وهلة قصيرة جدا أن لها فى الدنيا مكانين فقط .. « هنا » .. أو « هناك » .. وسألت نفسها : وأين يكون « هناك » ؟.. هناك مكان مجهول لا يعلمه إلا الله ولن يكون البيت الذى ولدت فيه .. ثم رفعت « درية » صوتها فى حدة :

ـــ وماذا أعمل يا ماما ؟!

فهمست :

ـــ حاولى أن .. أن تعيديه إليك .. هه .. هل أنت فاهمة ؟

ـــ فاهمة .. لكن هذا ليس سهلا .. لا أعرف العوم لكن سألقى بنفسى فى الماء لأن ذلك ضرورى ..

وسكتت ثم صرخت : « ماما .. انتهينا .. اتركينى فقد أوشكت على الجنون » ..

عندما تأهبت الأم للخروج قالت لها بصوت حاسم :

ـــ دبرى نفسك .. وافرضى أنه لا أم لك ولا أب ..

واتجهت نحو الباب فشعرت « درية » كأنها ترى لأول مرة فى حياتها ظهر أمها .. إنه إعراض شديد .. مثّل سدا داكنا قام بينها وبين القلوب التى أحبتها فماذا عسى أن تفعل ؟!

وها هو ذا الآن نائم بعد « وردية الليل » .. مضى عليه وقت طويل ..

واربت عليه الباب فألفته مستغرقا .. و لم تدر لماذا دخلت ووقفت إلى جواره على مقربة من رأسه .. رأته وهو نائم .. شفتاه منفرجتان عن أسنانه الصفراء المتلاصقة وشعره القارى منفوش وشعر ذقنه قد نما حديثا .. ربعت ذراعيها على صدرها ووقفت تتأمل هذا الرجل الذى يطالبها « بشىء » كأنها ولدت بدونه .. ثأره عند غيرها .. عند الذى خطفه منها وهى غير قادرة على الحراسة . وشعرت « درية » أن هاتين الشفتين المنفرجتين ممكن أن تخرج من بينهما كلمة تريحها من عذابها ثم .. سألت نفسها : « ترى بماذا يحلم الآن » ؟ ثم جاءتها أفكار مهوشة لا يربطها أصل واحد .. فماذا لو خنقته ؟! أليست الجريمة الثانية أخف من الأولى ؟! ثم !.. ما لبثت أفكارها أن تحولت .. إذ شعرت بميل طارئ إلى أن تركع وتقبله وهو نائم وعندما يستيقظ .. وتأوهت !! « مصدر الخطر ومصدر الأمان » ..

وعندئذ تقلب وفتح عينيه .. كان يحلم بما رآه فى القطار الليلة البارحة .. بحادث الولادة وما حوله .. وبدأ فى نظراته أنه يحاول استرداد وعيه بعنف فلما انتبه تماما نظر إليها وقال لها :

ـــ لماذا أنت واقفة هكذا ؟!

فأجابت ببساطة الصادقين وهى كاذبة :

ـــ سمعتك تنادى على بأعلى صوتك .. فلما وجدتك نائما لم أحاول إيقاظك ..

وأطرقت فى خنوع وطاعة ..

جلس فى الفراش وفرك عينيه .. نظر إليها فألفاها فى كامل الزينة وفى عينيها تودد وتعاسة .. ذراعاها مربعتان على صدرها وعيناها تختلسان إليه النظر ..

سأل متشككا :

ــ أنا ؟.. أنا ناديت ؟!

ردت بإنكسار :

ــ على كل حال سمعت اسمى يخرج من حجرتك .. آه .. « ثم بتدلل يلين القلب » لا تحزن .. فنحن نحلم بالأشياء التى نكرهها أو نخافها .. « وبعد صمت » أليس جائزا أن تكون قد حكمت بقتلى !!

هتف مدهوشا :

ــ قتلك ؟! « وهز كتفه » ولماذا أقتلك ؟!

ابتسمت ودمعتان تجريان على خدها فى صمت وهى لا تزال واقفة :

ــ لأننى هززت فكرتك عن النساء ــ على الأقل ــ إذا كانت مشكلتى تخصنى وحدى ..

نظر إليها مدهوشا ، ولم تكن هى أقل دهشة من نفسها .. وكانت لا تزال صورة أمها وهى توليها ظهرها معرضة تملأ الفضاء كله أمام عينيها . لذلك فإنها استغاثت بكل قواها الغريزية والشخصية . ولاقتناعها بماضيها وسلامته وحاضرها وخطورته بدأت تتحول إلى شخصية أخرى .

رد « سلامة » مكابرا ومؤنبا :

ــ مشكلتك تخصك وحدك أنت يا عروسة !!

فردت باكية :

ــ « سلامة » .. لا .. إنها مشكلة اثنين .. فإذا كنت أنت عسلا وكنت أنا زفتا فقد اختلطت بك .. (وأجهشت) افهمنى ..

وأحس « سلامة » حقيقة أنه لن ينسى ما حدث . لا اهتزازة خيبة الأمل



بالنسبة إليه ولا نظرات الرعب والهلع والاستغاثة الصامتة التى نطق بها وجهها فى الليلة الأولى . والجسد المكشوف الذى أنسى الذل صاحبته أن تسدل عليه القميص . تبكى وهى عريانة كأنما كان ذلك رمزا لما ضاع منها . وجعل يتصور أنه أعاد التجربة مع امرأة جديدة ثم وجد عندها (اللؤلؤة) فإن وجودها هذا لن يغطى على آلام الصورة القديمة .

عندئذ هبطت عليه فكرة استجاب لها . فنظر إليها وهى واقفة وقال لها دون أن يناديها باسمها :

ـــ كم الساعة الآن !.. مناسب .. البسى ملابسك ..

فغرت فمها وأرادت أن تسأل وإن عجزت عن النطق :

ـــ آ .. أين ؟..

ـــ سأسافر معك سفرا قصيرا ..

* * *

وكان فى قرارة نفسه قد توصل إلى حل وسط وثق أنها ستقبله وسترى ذلك خيرا من الفضيحة . ثم كان هناك الشىء الأول والأكثر أهمية وذلك هو الكشف عن حقيقة ما حدث لها . وفكر تحت ظل هذه المسألة سائلا نفسه : لماذا لم تستدرجه قبلا (بعد عقد القران) فى ليلة من الليالى التى كان البيت يخلو عليهما فيها لارتكاب عمل كان ممكنا أن تتمسح به ؟! وصمت . مال إلى أن تصرفاتها كانت طبيعية .. وأنه لو كان هناك فكرة سابقة عما اكتشفه هو لاتخذت فى سبيله أشياء كثيرة . إذن فعند « درية » سر شخصى ربما كان من الخفاء إلى حد أنه خفى عليها هى .

وفى سبيل الحصول على هذا السر قرر السفر إلى إحدى عواصم الجنوب

لقضاء عدة ليال يعودان بعدها وقد تم الاتفاق على أمر ما . ثم سمعته ينادى اسمها وهى تحزم الحقيبة فأحست أن اسمها عذب . طرفة عين من السعادة .. ليست سعادة بالمعنى العظيم ولكنها رائحة الأمان فى كهف المخاوف ..

كان خوفها شديدا لكنها استراحت لهذه الفكرة .

وطول الطريق كانا صامتين فى إحدى مقاصير الدرجة الثانية .. هى إلى جوار النافذة وهو إلى جنبها .. وكان بعض الزملاء من الكمسارية والمفتشين يحيونهما ويبعثون بالمشروبات تحية للعروس ..

ثم نزلا فى فندق متوسط وطلب « سلامة » حجرة بسريرين . ولم تدهش لتصرفه . غير أنها شعرت أن بعض (البعد) قد يكون صورة من (القرب) أو على الأقل سببا إليه ..

وتناولا عشاءهما فى مطعم عام . وكل منهما يأكل وعيناه فى طبقه .. وكانت هى مسبلة الأجفان باستمرار تقريبا لا أفكار لها سوى أن تستشف أفكاره . أما هو فقد زايلته فترة الهدوء تلك التى صحبته فى القطار وبلغت ذروتها حين رأى إخوانه وتبادلا التحيات والنظرات الغامضة .

أما الآن فإنه يشعر بأنه أخطأ . هو الشعور العكسى لما شعرت به أم « درية » و « درية » أيضا . أحس أنه يحاول أن يجد بقعة مضيئة فى هذا الليل المخيف ، وأنه ربما قيل له من شخص لا يعرفه الآن : « طيب . ولماذا سكتت كل هذه المدة » ؟.

وشعر فجأة كأنه خاف من أفكاره فما لبث أن أنهى طعامه ونهض . ونهضت وراءه تمشى بخطوات متعثرة إلى حيث يقودها .

ساراً يقطعان كورنيش النيل فى الطريق إلى الفندق . وكما استمعا فى المطعم

إلى صوت مضغهما استمعا فى الشارع إلى وقع أقدامهما . وعلى طريق الكورنيش كان هناك بناء يقام . عمارة جديدة . عبرا من أمامها . وكانت هى ناحية البناء فملأت أنفها الروائح التى لم تعد تخطئها رائحة الآجر والأسمنت والماء المرشوش يخالط كل هذا رائحة خشب يحترق وعرق و .. بصل .. وخوف .. فألفت نفسها بلا إرادة تمسك زوجها من زنده كأنها على وشك أن تتداعى. وتركها تعمل لم يبد رفضا بحركة أو كلمة وظلت هى متشبثة به حتى أوشكا على الانحراف فى شارع جانبى لكن أغانى من هناك فى ذلك المبنى الذى يقام كانت تطارد سمعها وقلبها : « ولدى ..والادى ى .. ولدى » ..

* * *

بينما كان يعبث فى « الكومودينو » صادف منديلا من الورق ملطخا بأحمر شفاه عليه بصمات غير متكاملة .. وبطاقة تهنئة تحمل اسم أحد تجار السجائر .. فرجح أن الحجرة كانت مخدعا لعروسين فرحا .. ثم رحلا ..

خلع كل منهما ملابسه وجلس فوق سرير بعد أن أختار هو سريره .. وجلست « درية » وصفحة وجهها نحوه تعانى غصة تحاول التخلص منها بالتنحنح ممسكة عنقها بأطراف أصابعها كأنما لتساعد شيئا فى داخله على الحركة .

فى الحجرة نور خافت وهو يتكلم ... قال بهدوء شديد :

ـــ غير ممكن أن نظل هكذا .. أنت .. طبعا .. تعرفين هذا .. ولذلك فباختصار إننى مستعد أن أعتبر ما حدث خطأ ليس عليك فيه مسئولية إلا كمسئولية شخص أصيب بطلق نارى .. عمدا .. أو بغير قصد .. من بندقية قتل أو صيد .. وأنت على بأن الوفاء شىء يأتى ويذهب .. يعنى .. ربما

لا يكون موجودا ثم يوجد .. والعكس .. لكن أتسمعينني ؟

ــ نعم ..

ــ لا تبكى .. لأجل أن نبنى بيتا يجب أن نضع أساسه على أرض سليمة .. يعنى .. مثلا .. هل رأيت العمارة التى مررنا بجانبها ونحن عائدان ..

ردت كالملسوعة :

ــ نعم .. نعم .. نعم ..

ــ لا بد من وضع أول طوبة على الأرض الأصلية .. ونحن هنا آ .. ربما كان الجو يدعو إلى الثقة والحرية .. وأظن أن فى هذا دليلا على سلامة نيتى ..

وصمت .. وجو الليلة متقلب كما تنبأت « الأرصاد » .. فترات ركود وصفرات ريح .. ومع نشاط الريح ــ تأتى واهنة إلى حد لا تسمع فيه إلا بأذن « درية » تلك اللازمة التى كانت المجموعة المتحلقة حول النار فى العمارة تؤديها مع التصفيق بعدما يسكت المغنى المنفرد ، وعندما صمت « سلامة » وتوالت الريح فى هبات حملت إليها صدى اللازمة .. « ولدى ..والادى ى .. ولدى .. » ..

قالت الفتاة وهى ترتعد :

ــ « سلامة » .. حكاية « الثعبان » كانت كذبا .. اعذرنى .. كنت أريد أن أقول لك شيئا يقنعك .. لكن .. الذى جعلنى أكذب هو اعتقادى أن الصدق البسيط لا ينفع .. أنا كنت فريسة .. حادث غير مفهوم .. حتى أمى لم تفهمه .. عندما حكيته لها .. وبعد ذلك لخوفى غير المفهوم حاولت أن أغرق كل شىء فى النسيان .. لكنك ذكرتنى بكل شىء مضى كأننى رأيت حلما وأنت فسرته ..

ـــ احكى ..

ـــ آه .. آه .. هل رأيت العمارة التى تبنى هناك ؟

قال باستغراب :

ـــ ما لها ؟!..

ـــ حدث لى شيء فى واحدة مثلها .. لم أفهمه لا أنا ولا أمى حتى فسرته لى ..

واستغرقت فى البكاء .. وكانت الكلمات تخرج فرادى متفرقة كأنها تهتف بها وهى غارقة يملأ فمها الماء فتسكت ويفرغ فتتكلم ..

* * *

حضرتها صورة فتاة فى الثانية عشرة من العمر .. فى أحد جيبى ثوبها حمص وفى الثانى ريال من الفضة .. وفى يدها فستان لف فى صفحة الرياضة .. فيها صورة لرجلين يتلاكمان ..

كانت فى طريقها إلى السيدة « زينات » التى تسكن الدور الأول .. لم تكن ذهبت إليها من قبل فى المسكن الجديد .. والمبنى بممرات كبيرة وعدة أبواب وفى كل طابق سبع شقق ..

لذ لها أن تصعد إلى أعلى .. لعلها نسيت الدور المقصود أو لأنها تصعد سلما عاليا جدا لأول مرة فى هذه المدينة .. إنهم يسكنون « سلاملك » وهى تشعر بسرور لكل ما حولها .. وقفت من خلال إحدى نوافذ السلم فى الدور السادس تطل على طنطا .. رأت سطوحا ومآذن .. منظرا ساحرا لم تشهده من قبل ثم استمرت تصعد حتى رأت نفسها فى آخر دور ..

السلم بعد ذلك يؤدى إلى السطوح .. وكل شيء هادئ .. والشقق

بلا أبواب ولا شبابيك .. هيكل ضخم من المسلح والطوب ندى الرائحة .. وضحكت لنفسها ضحكة مسموعة وهى وحدها فقد رأت المدينة حقيرة جدا .. ونظرت إلى السماء حين سمعت أزير طائرة وتخيلت نفسها تنظر من الطائرة .. « لا بد أن المدينة تبدو أحقر » ..

وسفت قبضة من الحمص .. شعرت ببهجة طفلة تلهو فى الخلاء للمرة الأولى .. لا تنظر تحت قدميها .. وعندئذ تقدمت ودخلت من أقرب باب .. كان فى المبنى بقايا عمل بدليل أن هناك آجرا مرصوصا .. لكن .. لا صوت .. وبعد قليل شمت رائحة خشب يحترق .. ولم تعرف أين مصدر الرائحة .. وقفت تتفقد ما حولها وما لبثت أن استشعرت كأن شخصا خلفها ..

نظرت مذعورة فإذا به شاب فى العشرين من عمره يرتدى سروالا وفانلة وفى عينيه نظرات لم تر مثلها .. سألها عمن تريد فلما قالت : خالتى زينات .. أجاب :

ـــ تعالى أريك الباب .. لا تخافى .. « وكان يسحبها إلى الداخل » ..

فلما جفلت وهمت بمغادرة المبنى تشبث بيدها .. عندئذ أحس بطراوة لم يحسها قط إلا يوم أمسك برغيف المدينة للمرة الأولى وهذا خبز لم يأكله بعد !! ومن خلال شعرها أو ثوبها لا بد أنه شم رائحة عطر .. ملأ أنف ذلك الذى حكم عليه بأن يحمل الأحجار وينام فى المبانى حتى .. حتى تسكن .. كل مبنى جديد نام فيه بغير « عقد » حتى إذا ما سرى فيه النور وجب أن يخرج .. نظر إلى الصبية نظرة شاملة مفعمة بذكريات كل أغنية سمعها هنا .. والألوان التى رآها فى النوافذ المضيئة ليلا من خلال المبانى المعتمة .. وتأودات النساء فى الشوارع وضحكاتهن فى الأسواق وإطفائهن النور خلف الستائر ،

هذا النوع الذى لم يوجه إليه كلمة شخصية طوال حياته .. كلمة من ملايين الكلمات التى تطلق من الشفاه النسوية كل يوم .. وخصوصا تلك الشفاه المطلية .. ومن خلال أنامل الصبية سرى فيه شىء يحيى ويميت ووجد نفسه يهتف : « ولدى .. والادى ى ولدى » ..

وحاولت « درية » سحب يدها لكنها كانت كمن يسحب أصابعه من بين حجرى طاحون .. ولما همت بأن تصرخ قال لها مطمئنا :

ــ لا تخافى .. تعالى أفرجك على المآذن .. ادخلى لا تخافى ..

ووجدت نفسها مدفوعة بيديه فى عمق أعمق .. أبعد ما تكون عن النوافذ والناس .. عزلة قاتمة جعلتها عاجزة أن تتنفس .. وعندما التصق بها فاحت منه رائحة أميزها رائحة البصل والدخان .. وحملها بين ذراعيه كدمية وقد كتم أنفاسها بفمه .. ثم سادهما اضطراب ..

وبعد بضع دقائق أفلتها إلى الخارج فنزلت وهى تتلفت .. ولم تدر كيف عبرت على شقة السيدة « زينات » ولم تفطن لها .. وجدت نفسها فى الشارع .. ونظرت فى الجريدة الملفوفة التى أعطاها لها قبل أن تنزل بعد أن سقطت منها .. كان الرجلان لا يزالان يتلاكمان .. وتحسست جيبها فوجدت الحمص قد تبعثر والريال قد ضاع !!

وقفت تبكى برهة ثم سارت دامعة العين .. وفى إحدى المرايا التى تزين واجهات صالونات الحلاقة نظرت إلى وجهها فألفته شاحبا .. لكن .. ليس فيه أثر لشىء .. وتواردت إلى ذهنها خواطر كان أهمها وأشدها إقناعا هو التوجه فورا إلى « مقلى الحرمين » حيث الحاج يحيى هناك .. وفعلت ..

كان الناس مزدحمين حول المقلى والصبى يبيع والحاج فى الداخل ..

فدخلت إليه .. كان ممسكا بأحد الغرابيل ينقى به شيئا فلما سمع نداءها نظر إليها .. حملق الرجل إلى الصبية الشاحبة واستغرب ، لكن غرابته زالت حين قالت له : « إن الريال سقط منها وأنها خائفة أن تقول لأبيها » ..

وقبلها .. أحست بلسعة نار على جبينها .. ثم رأته يهرول إلى الصندوق فيبحث عن ريال من الفضة فأخذته وخرجت ..

نظرت إلى ضريح « البدوى » ودعت له عندما كانت فى الشارع ثم توجهت من جديد إلى شقة السيدة « زينات » .

وعندما وصلت إلى باب العمارة وجدت إحدى بناتها فأسلمتها الفستان وعادت بسرعة .. كادت تجرى ..

وقابلتها أمها باحتجاج :

ــ لماذا غبت يالعبية ؟..

فلم ترد .. ودخلت إلى مكان ما وفحصت نفسها فخافت .. ودخلت إلى حجرة وارتمت تحت الغطاء .. راحت فى نوم متقطع لكنه ثقيل الوطأة .. واستيقظت وكان الليل قد نزل .. وحامت حول أمها لتحكى لها ولكنها تراجعت .. وفجأة صممت أن تقول :

ــ ماما .. انظرى .. هاتان البقعتان من الدم ..

وبكت الصبية .. انخرطت فى البكاء فما راعها إلا أن تقوم أمها وتحضنها ببشاشة وتقبل خديها وتهمس لها بغموض يبعث على الاعتقاد بأنه شىء عادى .. عادى جدا .. يحدث لكل فتاة ..

ــ لكن يا ماما .. آ ..

ــ هس .. ولا ترفعى صوتك .. ذلك شىء يحدث للبنات فى سن معروفة ..

وتركتها ومشت ورجعت إليها بما يستعمل عادة من حوائج .. وألقت إليها بكلمات ثم تركتها وانصرفت لما كانت فيه .. وعاء من النحاس كبير تطبخ فيه حلبة بعسل وتضيف إليه السمسم ليكون طعاما واقيا من البرد للأولاد أيام الشتاء ..

ومنذ هذه الساعة والبنية تحاول أن تلبس الغراب ريش الطاووس .. حاولت أن تنسج لنفسها خديعة مادتها غفلة الأم .. فاستطاعت بشيء من الجهد أن تنسى الذى حدث تقريبا .. حتى إذا ما جاء المساء الثانى شارك القدر فى نسج الخديعة بالنسبة للاثنتين فقد حدث فعلا ما ظنته الأم قد حدث من قبل فأصبحت « درية » فتاة .. فغطى الذى تصنعه الطبيعة على خطأ فعله إنسان ..

ولم تذكر هذا بالتفصيل من جديد إلا منذ قريب .. وعندما كانت فى الحمام فى البخار والدفء ورائحة الصابون يوم دفنت وجهها فى قميصها المعلق ..

* * *

فرغت من قصتها فى تلعثم .. وجاءها صوت حقيقى أو موهوم مع تصفيق من جماعة فى مبنى العمارة على الشاطئ حول النار الموقدة تحلقوا بجلابيب فى لون الأحجار : « ولدى ..والادى ى..ولدى » ..

فرقدت على سريرها وغطت وجهها بذراعها .. فى الصمت الذى جثم كادت تسمع تنفس « سلامة » ثم سمعت صوت عود ثقاب يشعل وانتشرت رائحة التبغ ممزوجة بالكبريت ومد « سلامة » يده إلى الأباجور فأطفأه .. وهتف :

ــ « درية » ..

بصوت مبحوح ردت :

ــ نعم ..

ــ فى القطار رأيت امرأة .. آ ..

قطع كلامه .. أحس أنه يعذب طيرا يذبح فغير فكرته وعاد يقول :

ــ امرأة مع بنتها التى يبدو أنها عروس .. ففكرت فيك طويلا ..آ .. أريد أن أقول ..

وعاد فسكت .. ومن خلال الظلام وتوهج جمرة السيجارة أحست أنه مضطرب .. أحد الطرفين مناط للهجوم ، وعلى الآخر أن يتحمل لأن الاحتمال وحده هو السلاح المقبول عند الطرف المهاجم .. وأنها تريد زمنا ..

ــ من الممكن أن تكون المرأة أما وزوجة .. ومن الممكن أن تكون زوجة فقط و ..

كان صوته كأنه خارج من قاع عميق لكنها صنعت فى نفسها وجها ثالثا للقضية : « وممكن أن تكون أما فقط » ..

ــ ممكن بالنسبة لنا أن نبقى زوجين فلا أحاول أن أصير أبا ولا تحاولى أن تصيرى أما ..

ــ لماذا ؟!..

قال فى احتداد شديد :

ــ ليس هذا انتقاما لكنه احتياط ..

فردت بذل :

ــ ألم تصدقنى يا « سلامة » ؟

فرد بحدة نسبية :

ـــ الجدال غير محبوب فى مثل هذه الأحوال ..

هتفت بدمعها :

ـــ حسن .. أنا بهذا غير مذنبة وغير بريئة ..

ـــ يجب أن تفهمى أن المشكلة غير عقلية لكى تهضم بهذه الطريقة ..

وسكت .. أخذت هى تفكر .. هل ستكون زوجة تحت التجربة أو عشيقة ؟ على أن هناك مرتبة أدنى من الأخيرة هى مرتبة « المأجورات » مع فارق فى دقة الشعرة لكنه فى حدة السيف .. فلا هى عشيقة ولا هى مأجورة ولا هى زوجة ..

كاد التنهد يخلع قلبها .. لكنها شعرت أنه من الضرورى أن تذل نفسها .. يجب أن تقبل الرجعة المجروحة أو البقاء الذليل وشعرت أن هذا الشاب إما طالب لذة وإما منتقم ..

ـــ سنسافر غدا ..

صوت حاسم خال من الظلام .. مزق سكون الغرفة كرصاصة نقش على « ظرفها » مصير الفتاة ..

جاء الصدى من الخارج ـــ وهما ـــ صوت المجموعة المتحلقة حول النار .. تصفق .. تصفق .. تصفق .. دقة حزينة .. والصوت شرخه النوم .. والأذرع متداعية والأجفان نصف مغمضة والأبدان تحن إلى الأرض ..

صورة ودوامة .. لم يتحملها قلبها الغض .. وعندئذ همست فى استحياء وهى لا تجد أثرا لريق .. وبدموع :

ـــ سلامة .. موافقة ..

٥

ـــ اتفقنا على أن أكون هكذا يا ماما .. لا زوجة ولا صديقة ولا أم ولا حتى عشيقة .

هتفت الأم وهى تمسح عرقها فى الشتاء :

ـــ أفهمينى أولا .. هل ستقيمين معه هنا فى البيت ؟

فطحنت « درية » أسنانها وقالت بضجر :

ـــ نعم .. ماذا كنت تظنين إذن ؟ فى الخرائب .. عذاب .. افهمى ما أقول ..

أطرقت الأم قليلا ثم رفعت رأسها وسألت بهمس :

ـــ يعنى لا يريد أن يزرع الجنينة ؟

ـــ تمام ..

أشارت الأم بيدها :

ـــ مجرد نزهة .. ،

ـــ تمام ..

دمعت عيناها .. وبدأت تميل إلى تصديق ابنتها فيما قصته عن مأساتها . فبعد أن يحكم بالبراءة تميل إلى تبرئة من اقترف . وقالت الأم لـ « درية » كلاما آخر .. معناه أن المستقبل كفيل بأن يحوله من ناقم إلى متسامح ثم أسير لعاداته وربما إلى محب .. وكانت فى هذه الوهلة تذكر حادثة معينة .. عرفتها ..

حادثة تاجر فى المدينة مر بهذه المراحل مع خادمة شوهاء .. لكن « درية » جميلة .. عليها أن تتحمل حتى تستتب العادة وبعد ذلك ربما مضت الأمور فى طريق لا يخطر على بال ..

غير أن الوضع بين العروسين كان مخالفا لما ذكرته الأم من ناحية لم تفطن إليها .. ذلك أن « درية » عندما يستتب لها الأمر فإنها لا بد طالبة ثأرها .. ولن تطلبه بالمعنى المألوف المشهور .. معنى التربص للغدر . بل لا بد أن تدرك أنه من المحال أن تنسى فتاة ، هذا موقفها ، كل ما حدث لها فى الليالى الأولى التى كانت تتصور أنها ورد وحناء فإذا العذاب فى سرير العروس .. ثم .. هو الآن .. آه ..

إنه منذ اللقاء الأول بعد ان اتفقا على الوضع الجديد أصبح يمثل فى نظرها كائنا غريبا .. كائن يأكل منها بنهم ثم يتلوى بعد الطعام .. يدخل بعوده الطويل ووجهه المنتفخ تفوح منه روائح شاذة عقب عودته من الخارج .. ثم يبدأ فى مناغاة دمية على حاجز مرآة الزينة فى حجرة النوم .. يصب عليها كل ما فى نفسه يوما بعد يوم .. « جميلة والله العظيم .. أجمل ما فى الدنيا .. لا ينقصك شيء أبدا .. وحتى هذا الشيء الذى نقصك قالوا إن أمنا حواء كانت بدونه .. ويجب أن نصدق » ..

ويهمهم بالضحك وينظر إلى الدمية كأنه يراودها .. يتفرس ملامحها وتفاصيل جسمها كأنه بانتظار الرد .. وتطرق « درية » مفكرة فيما يقول :

« هل كانت حواء بدون هذا الشيء حقيقة ؟ ولماذا لا يكون هذا صحيحا ما دام أنه لم يكن فى الدنيا سواهما .. فممن كان الله يريد أن يحميها حتى يتزوجها آدم ؟ » .. ثم تهمس بصوت يكاد يكون مسموعا : « لماذا لم نرثها فنستريح » ..



ويتمدد هو فى الفراش ثم يسأل :

ــ فيم تفكرين .. هل صدقت حكاية أمنا حواء ؟!

ــ لا ..

ــ كذبتها ؟

ــ لا ..

ــ لا صدقتها ولا كذبتها .. انظرى كم نحن محظوظون نحن الرجال .. نقترف الآثام ونظل عذارى ..

ــ إنك تعذبنى ..

فيصرخ :

ــ أطفئى النور ..

وبعد فترة من الوقت يستسلم للنوم وإلا فإنه ينهض من فراشه وهو فى غاية من الضجر يبحث عن طعام بنفسه وقد أشعل كل الأنوار ، ثم يجلس على مقربة منها ليأكل وحده وهو يغنى إحدى الأغانى الوقحة من تلك التى يرددها عادة مغنيات الأفراح ذوات الشعر المصبوغ والأسنان الذهبية على نغمات الأوكرديون والدخان الأزرق ..

عندئذ تطوف « درية » بروحها حول كل عذراء تحلم فى مخدع فترثى لها أو تدعو لها .. لأن الشراب الذى تسقاه لم يثر فى نفسها إلا الاشمئزاز ..

وفى الصباح .. أو فى الليل .. عندما تكون وحدها تحن إلى شىء مبهم .. شىء لا تعرفه .. يبدو أحيانا فى صورة حبيب يمسح بكفه على ذلك العذاب .. وأحيانا يبدو فى صورة أكثر غموضا وبعدا .. صورتها وهى بين مجتمع لا يعرفها فرد من أفراده فى مدينة كبيرة .. وأحيانا عظمى وهى ممسكة بعنق

شاب لا تكاد تذكر ملامحه .. وتضغط عليه حتى تزهق روحه ..

كانت تأكل على منضدة صغيرة وهذه الأفكار تراودها ذات يوم ، فألفت جريدة قديمة تقص قصة العمدة الذى كان يلقى كل جريمة قتل تقع فى القرية على عاتق رجل يختاره من القرية إما ضعيف وإما عدو ، ثم يلفق له الجريمة حتى لا يفصل من « العمدية » .. وبلغ به الأمر ذات يوم بعد أن مدحوه على تزويره أو نسبوا إليه مهارة الحكام النادرة ، بلغ به أن اعتقد هو نفسه أنه فى كل مرة يضع يده على المجرم الحقيقى ..

وتمنت « درية » أن تصل إلى هذه المرحلة من اليقين .. إنها لا تعرف ذلك الشاب .. لكن ليتها تعتقد فى شخص ما إنه هو الذى « سرقها » .. إنها تريد أن تفعل ما فعلته تلك الأم التى غرق ابنها و لم تعثر له على جثة فبنت له قبرا أخذت تتردد عليه ، وشيئا فشيئا اعتقدت أن رفات ابنها فيه وانتهى الأمر . ووجدت الدموع وطنا بعد الغربة .

« وكأن مآسينا لا بد لها من شخص معين نصب عليه نقمتنا » كذلك فكرت « درية » .. بل وتصورت ماذا عسى أن يصنع « سلامة » كل ليلة يتمتع بالقتيلة .. « درية » .. ثم يعيد قتلها .. ثم يعيد الكرة من جديد — فما عسى إذن أن يفعل بالقاتل الحقيقى ؟!

* * *

وها هى ذى الآن فى الشهر الثانى من حياتها الجديدة .

بدأت هى تحس بالأمان الذى طلبته أمها لنفسها ولها .. ذلك الأمان الذى يجعل أخواتها فى حرز من عثرتها الشخصية .. عند ذلك أخذت تسأل نفسها : « لماذا لا أعود إلى بيت أبى ؟! .. أو لماذا لا أخرج وأعمل فى مشغل تطريز ؟! » ..

غير أنها كانت تشعر فى قرارة نفسها بشعور لا يمكن تعليله .. تشعر بأن عليها أن تنتظر لأن العلاقات النفسية بينها وبين البيت الذى ولدت فيه أصبحت واهية ، وهى بطبيعتها ــ هذه العلاقات ــ غير صالحة لأن تعيدها الفتاة من جديد .. ثمرة قطفت من شجرتها بعد النضج فلا سبيل إلى إعادتها للغصن ..

وكانت « درية » فى هذه الفترة تشعر بأن النقمة فى قلب « سلامة » وعلى لسانه قد بدأت تفتر نوعا .. حتى أنه حدث فى إحدى الليالى أن اعتذر لها بطريقته عن عمل غريب حين دخل من الخارج منتشيا وقد وضع يده فى جيب سرواله ثم وقف أمامها مازحا يحدثها ، وعيناه على الدمية التى شعرت « درية » ــ منذ الآن ــ وكأنها ضرتها وقال لها :

ــ إن خمنت ما فى جيبى كان لك كله ..

وكان عليها أن تجاريه ، فأخذت تقول :

ــ لوز ؟!

ــ ...

فضحكت وقالت :

ــ جوز ؟!

قهقه :

ــ لا ..

ــ حمص .. وهذا آخر ما عندى ..

فأخرج يده مقبوضة ووضع فى كفها بضعة من القروش ، فلما بسطت كفها وحملقت فيها فهمت قصده الذى عبر عنه بنظراته وضحكاته المصحوبة

بسعال خشن وبصقات فى منديل ..

وبعثرت « درية » كل القروش على الأرض .. القروش « المثقوبة » كلها من الوسط والتى أوحت بما يريد أن يقول لها ..

فأخذت القروش تجرى فى كل اتجاه ككائنات صغيرة أصابها الذعر وكان مشغولا بخلع ثيابه ومستغرقا فى ضحكه .. فلما فطن إليها وقد جعل الغضب عينيها مثل عينى نمرة أمرها أن تجمع النقود من على الأرض .. فهزت رأسها فى إباء .. فقال لها بهدوء يحمل المعنى القديم :

ـــ نعمة الله تبعثر على الأرض ؟!.. لماذا غضبت من هذا ؟!.. لأنها قروش مثقوبة ؟!.. كلها عملة وتمشى فى السوق ..

ونام هادئا وظلت مؤرقة حتى الصباح ..

* * *

وفتحت النافذة التى لم تر فيها أحدا طوال هذه الشهور ، كانت فى البيت المجاور عبر ممر غير واسع .. وظهر فيها شبح امرأة فى يدها خرقة تنفض بها الغبار عن خشب الشباك .. وأخذت « درية » تتأملها .. كانت سقيمة الجسم بيضاء نحيفة لكن ضرباتها بادية القوة مما يدل على أنها تحيا على أعصابها .. وعلى وجهها استقامة . المرأة منهمكة فى عملها حتى كأنها غير شاعرة بوجود أحد حولها .. لكنها توقفت برهة وحملقت فى نافذة « درية » ، فلما وقع بصرها على وجهها الحلو بدت فجأة وكأنها سعيدة .. زايلت وجهها الحدة الظاهرة التى كأنها نشأت من طريقة العمل .. وولدت على فمها ابتسامة لم تمكث طويلا أومأت بعدها برأسها محيية « درية » ..

وبادلتها التحية .. وعندئذ علقت المرأة خرقتها على حلقة « السبنيولة »

واتكأت على مرفقيها وأطلت تحملق فيها كقروية تنظر للمرة الأولى إلى زينة عروس مدنية :

ـــ مبروك يا عروسة ..

وعجبت « درية » .. عجبت وتألمت .. لكنها سارعت بالرد عليها :

ـــ الله يبارك فيك ..

ومدت يدها إلى مجلة قريبة حملها زوجها معه ذات يوم تريد أن تتشاغل بها ، لكن عينى المرأة كانتا من الصراحة والقوة بحيث أجبرتا « درية » على عدم الانصراف وفى العينين نظرة إعجاب كأنها من عين رجل فأهدت إليها بعض الرضا ، من أجل هذا أخذت الفتاة تحملق فيها وهى مبتسمة .. كأن الشيء الذى سلب منها بيد الرجال رد إليها بنظرة إعجاب من امرأة .. ولم تترك الجارة لها وقتا للتساؤل عن أثر نظرة رجل إليها إذا كان فيها حب وتكريم ما دامت تحيا بهذه النفسية .. نعم .. لأن هذه الجارة انسابت تقول :

ـــ يظهر أنك وحدك باستمرار .. تحملت أنا وأنا صغيرة مثل هذه الفترة بملل .. كان زوجى يخرج إلى عمله ويتركنى أنظف الشقة ثلاث مرات فى اليوم لأضيع الوقت حتى خلفت أول طفل ..

وعندئذ سقطت الخرقة من فوق الحلقة المعلقة عليها فأعادتها إلى وضعها الأول ثم هتفت تسأل :

ـــ وأنت ؟.. حتى الآن ؟.. هه ؟!..

سألتها هذا السؤال وهى منتصبة واقفة وتشير إلى بطنها وتغالب ضحكة لو انطلقت لحملت مرح سن العشرين مع أنها فوق الأربعين بكثير ..

فأظلم وجه الفتاة وأشارت برأسها نفيا فقالت المرأة :

ـــ تمتعى بشبابك .. إنهم يسلبوننا المال والصحة والعمر ..

ثم أسندت رأسها الصغير على كفها الدقيقة وهى محنية فى النافذة وبدت عليها ظلال الحزن كأنما طافت بها ذكرى .. سرحت وصمتت ثم أسبلت أجفانها كمسافر أخذته سنة من النوم ، وعندئذ ارتفع صفير حاد آت من ناحية السجن فانتفضت وأمسكت بالخرقة وأشارت إلى الفتاة وإلى السجن بعد ذلك :

ـــ إنه هناك ..

ـــ من ؟

ـــ زوجى ..

ففغرت فمها حين أدركت أن هذا هو سبب حزنها الطارىء و لم تملك أن رفعت صوتها لتسأل المرأة :

ـــ بأى جريمة دخل السجن ؟

ردت عليها وهى تضحك ..

ـــ جريمة العيش ..

ـــ سرق ؟!

فردت والضحك يقطع كلماتها ..

ـــ لا .. إنه سجان .. لكن عمله لا يخلو من الجرائم .. عن إذنك لأخلص من عملى قبل أن يعود .. آه .. لماذا لا تأتين لزيارتنا ؟

ـــ حاضر ..

ـــ تشرفى ..

أقفلت النافذة وتركتها فى مكانها تتلفت ..

* * *

وعندما انتهى الحديث بين المرأتين كان هناك حديث أكثر أهمية يجرى بين « سلامة » ورجل من ركاب الدرجة الثالثة فى قطار الظهر القادم إلى القاهرة ..

لم يكن فى القطار موضع لقدم .. أكداس من الأمتعة والأطعمة والناس .. ولم يخل الأمر من وجود بعض الطيور والحيوانات الصامتة كالأرانب والحمام فى أسفاط غطيت بالحشيش .. ولأن القطار قطار ركاب ولتقارب المحطات فإنه كان مطمعا للهاربين من الأجرة .. دائما ..

كان « سلامة » يتجول فى عربات الدرجة الثالثة بعسر شديد وتجادل ألف مرة مع الفلاحين حول أولاد معهم فى سن الحادية عشرة يصر آباؤهم على اعتبارهم أطفالا معفين من الأجرة ..

وكان منظرهم يبدو مضحكا حين يتكور الواحد منهم فى جلسته ليبدو صغير السن .. حتى إذا ما طلب منه الكمسارى أن يقف ضغط أبوه على كتفيه ليمنعه وهو يحلف أنه فى السادسة من العمر وأنه والد سنة موت جده كأن هذا الحادث يؤرخ به ..

وعلى هذا المنوال استمر عمل « سلامة » حتى وصل به المطاف إلى رجل قمىء يلبس جلبابا من القطن أكله الغسيل ، ليس تحته صدارى وهيأته فى جملتها تدل على العوز منزو فى ركن .. تبرز عظمتا ترقوته وعظمتا خديه .. وعينه العوراء علامة ظاهرة لا يخطئها بصر .. وقلنسوته لا تغطى رأسه لأن له جبينا بارزا فى وسطه ندبة .. ولم يكن « سلامة » قد سبق أن رآه لأن كثيرا من الوجوه تعرف فى القطارات حتى تؤلف مثل وجوه الباعة وأصحاب الاشتراكات ..

وعندما وقع بصر « سلامة » على وجه هذا الرجل أدرك بخبرة الموظف الذى مارس هذا العمل بضع سنوات أن هذا الرجل مرتكب لمخالفة أيسرها أنه لا يحمل تذكرة سفر ..

وتقدم منه وفى يده مقراض التذاكر وأشار به إليه حتى كاد يلمس جبينه وحدق فيه بعينيه القويتين وهو يشير بكفه الضخمة ..

أخذ الرجل ينظر إليه بعينه السليمة لأن الأخرى شبه مقفلة بعملية لا يبدو من مقلتها سوى شريط ضيق منفر .. أما العين الأخرى فقد حملت سر العينين معا كأن وظيفة المفقودة فى التعبير أحيلت إليها بحكم الطبيعة .. فى لون الكهرمان .. وفى نظرتها قوة « النبلة » .. لكن الرجل كان خائفا .

ــ تذاكر .. أنت يا راجل ..

ــ حاضر يا سيدى ..

قالها بانكسار وهو يخفى رأسه بين كتفيه كأن حجرا سيسقط فوقه وأخذ يفتش فى كل مكان من ملابسه يمكن أن يضع فيه تذكرة .. حتى القلنسوة خلعها وبحث فيها . على طريقة الريفيين الذين يحملون تذاكر السفر بين قلنسواتهم وفروة رءوسهم ..

طال البحث وكان فى الحقيقة متعمدا هذا .. وكان ممكنا أن يتركه « سلامة » وينصرف إلى غيره ثم يعود إليه لكنه لذ له أن يلسعه بنظراته ..

وتحول هذا الرجل ابن الأربعين إلى فأر صغير أحاطت به المهالك .. فنهض واقفا وفتش أحد جيوبه وأخيرا شهق وزفر :

ــ أشهد ألا الله الا الله ..

ــ وجدتها ؟!

ـــ نعم .. يا سيدى .. تفضل ..

وقدمها إليه بيد مرتعشة :

وشد ما كانت دهشة « سلامة » عندما وجد أن ما قدم إليه ليس تذكرة ولا نصف تذكرة بل ثلاث عشرة تذكرة فيها النصف وفيها الكامل .. فعاد يحملق إلى وجهه فى تساؤل :

ـــ كل هؤلاء معك ؟

فانطوى فى ذل وبطريقة لا تثير الشفقة بقدر ما تثير الشكوك :

ـــ نعم .. يا سيدى .. وحياة رسول الله ..

فأجاب « سلامة » مسرعا :

ـــ طيب طيب .. لا داعى للحلف فهم لا بد أن يكونوا معك .. لكن أين هم ؟!

فتطاول بقامته القميئة وأخذ يفتش فى العربة ثم قفز ووقف على الكرسى وقال وهو يلهث ويرتعش :

ـــ بعضهم فى .. هذه العربة .. وبعضهم ..

ـــ عال .. فى العربة الأخرى .. تعال معى لأراهم ..

وأمسك بيده من رسغه .. أحس كأنه أمسك قطعة من الخشب الصلب ، وأخذ الرجل يتخطى الناس والأطفال ويعد بين كل بضعة كراسى .. بنات فى سن المراهقة والبلوغ وبنات صغيرات .. وصبيان لا يتجاوز أكبرهم عشرة أعوام .. كلهم فى ثياب الفاقة وعلى وجوههم خوف يبلغ أحيانا حد الفزع ..

سأله « سلامة » مندهشا :

ـــ من هؤلاء ؟

فأجاب متلعثما :

ــ عمل لله يا سيدى .. قدرك الله على عمل الطيب .. مسافرون لأقاربهم فى القاهرة .. لا يعرفون السفر وحدهم ومعهم متاعهم ..

فألهم « سلامة » شيئا جديدا .. فأمسكه من يده :

ــ تعال .. عد قطع المتاع الذى معك ..

عندئذ زاد ارتباك الرجل وبدأت عينه السليمة فى التألق ثم ظهرت فيها الدموع .. لكن « سلامة » انصرف عنه بقلبه كله .. كان يريد أن يكتشف ما وراء هذه الشخصية ..

فقال له الرجل وهو يتعثر وراءه :

ــ ليس معى أكثر من ست قطع ..

ــ إذا ظهر أنك تكذب فسألفق لك تهمة ..

« وهدد بنظرته وقبضته » ..

ــ تعال ورائى .. عد ..

كان معه أربعون قطعة كلها أسفاط وقفف مليئة بالطعام .. وفهم بحكم مهنته ماذا يمكن أن يكون هذا الرجل .. عندئذ أفهمه أن هذا كله سينقل إلى حيث يوزن ويعتبر شحنة فى قطار الركاب فضلا على أن بعض البشر الذين صحبهم معه لا بد أن يقطع تذكرة كاملة لا نصف تذكرة ..

بدأ يرد بتلجلج كأنه على وشك أن يغمى عليه ويحلف بكل المقدسات أنها عملية لله .. ثم مال على يد الكمسارى يقبلها .. لكن رد الفعل كان عكسيا فقد كره « سلامة » هذا التذلل واستمر فى التضييق عليه فما كان منه إلا أن قال له :

ــ طيب .. ساعدنى هذه المرة وأعيش خادما لك .. من أجل رسول الله .

وبسرعة شمر أذيال جلبابه المشرشر الذيل من القدم وكشف عن ساقه المعوجة العجفاء وهو يقول بصوت باك :

ــ كسرت رجلى هذه وأنا فى زيارة النبى .. ربنا يكتبها لك ..

وضحك « سلامة » والركاب وتساءل بعض الشبان عما إذا كان يدعو له بالكسر أو يدعو له بالزيارة .. لكن الرجل كان فى معزل عن كل هذا .. ظل فى أعماق دوره لا يشعر بشىء سواه وانتصب من انحنائه ثم شمر عن ساعده ورفع أطراف كمه المشرشر عن ذراع مهزولة .. وقال لـ « سلامة » :

ــ وهذه اليد كسرت وأنا أحمل الأحجار لأرفعها لله ..

رد « سلامة » فى دعابة وهدوء :

ــ وهل الله فى حاجة إلى أحجار ؟!

ــ كنت أساعد بعرق ويدى فى بناء مسجد القرية ..

وتشاغل « سلامة » بإشعال سيجارة لكن الرجل أقدم على عمل أكبر إذ جلس على بعض الأمتعة المرصوصة فى الطرقة وكشف ظهره بسرعة فغطى جلبابه رأسه ووجهه كأن مظلة سقطت عليه وكان يهتف بصوت حزين من غطائه :

ــ هل ترى الكى الذى على ظهرى .. انظر إنه علاج بسبب الأحجار .. أحجار المسجد فقد مرضت بعدها .. ولولا الكى لـ ..

وكانت هذه الحركة سببا فى الهياج والضجيج والضحك ، وعندئذ لان قلب « بسلامة » وتركه ومضى تلاحقه دعوات من الرجل محفوظة كأنها

« أوراد » .. وفى محطة القاهرة لاحقه يطلب منه أن يجعله خادما له فهو أخلص إنسان فى خدمة الناس ..

فرد عليه سلامة محرجا :

ـــ وماذا أطلب منك .. إنى ..

ـــ زبدة .. خدام .. مرحرح .. آ ..

وبدا عليه أنه سيقول أكثر لكن « سلامة » قال له :

ـــ هل الزبد عندكم رخيص ؟

ـــ أرخص من التراب ..

ـــ حسن .. أريد منه أربعين رطلا ..

ـــ خدامك .. والعنوان ؟

وتردد « سلامة » قبل أن يجيب لكنه ما لبث أن كتبه له .. ثم غاب كل منهما فى زحام الناس ..



٦

لاحت لها فى النافذة مرة أخرى . و لم تدر لماذا انجذبت إليها خصوصا بعد أن زارتها فى بيتها من عدة أيام .. كانت هذه المرأة فى الحقيقة أشبه بسند لكل معارفها .. يبثونها الشكوى ويحلون بواسطتها الأزمات الاقتصادية .. وبها كذلك تتم الزيجات بين شباب الأسر التى تعرفها ..

وكانت « درية » فى ذلك اليوم قد استأذنت لزيارة بيت أبيها. وهناك التقت بالذكريات الأولى ثم ودعتها وانصرفت .. وعندما وصلت إلى الميدان ورأت البيوت إلى اليسار لاح لها بيت هذه السيدة لكنها مرت .. عبرت على الممر الفاصل والذى يقع فيه دكان صغير مبنى تحت نافذتها تفوح منه رائحة السمك ودكان صغير آخر شغله أحد الرفائين .. ثم .. دلفت إلى باب بيتها ..

لكنها عن لها أن تعود .. وأن تمر على هذه السيدة التى دعتها إلى زيارتها بالعبارة والنظرة .. فصعدت سلما فسيحا تزين مسقطه قبل كل طابق نافذة واسعة .. بزجاج فيه ألوان الطيف نفخ فيها روحانية إذ ذكّرها بزجاج مسجد « البدوى » من الداخل حين كانت تذهب لزيارته ..

وقبل أن تصل إلى الباب الذى تقصده قابلها على السلم رجل عرفت هيأته من لبسه وسمته .. فقد كان زيه الرسمى يدل على أنه من رجال السجون .. أما سمته فقد كان آية فى الصرامة خصوصا ذقنه العريض وجبينه الضيق وصفحة وجهه السمينة الملمعة ..وعرفت « درية » أنه زوج هذه السيدة ..

وظلت توازن بين السماحة والقسوة اللتين يجمعهما فراش حتى طرقت الباب ..

وهللت السيدة حين رأتها .. كأنها لم تصدق عينيها .. كأنها لم تكن متصلة بأحد قط .. لكن الدافع الحقيقى لهذه الصلات كان لها لذة شخصية نشأت من طبيعتها الريفية التى تميل لخدمة « الجماعة » ثم تطورت ونمت بالذكاء والحكمة والجرأة وسعة الوقت .. فمن يدها تم ادخار مبالغ جهزت بها عرائس وحج بها ناس وكفن بها موتى وأكمل بها مصروف الشهر ..

وأحست « درية » وهى تدخل بخفقة قلب غامضة .. ترددت فهتفت المرأة فى تشجيع :

ــ ليس فى البيت أحد يا عروسة .. أهلا بك .. عمك أبو اليزيد نزل حالا ..

هل قابلك على السلم .. مؤكد .. تعالى فربما كنت محتاجة إليك ..

وكأنما لذ لـ « درية » أن يحتاج إليها أحد .. ودخلتا إلى الحجرة التى تطل على الممر .. واقتربت « درية » من النافذة بطريقة ليس للإرادة فيها دخل لتلقى نظرة على شباكها هى .. لذ لها ما يلذ للناس حين يرون بيوتهم من نوافذ بيوت غيرهم ويطلون على أولادهم وهم فى الشارع ؟

وخيل إلى « درية » أنها رأت بيتا غير بيتها .. وجلست على كنبة قريبة من النافذة والمرأة إلى جوارها .. تحسست شعرها بإعجاب .. ثم ربتت على كتفها الكنزة الضيقة ثم حملقت فى أردافها الكبيرة بالنسبة إلى عودها وابتسمت وهى تذكر أيامها الماضية قبل أن يذوبها النزيف الذى ظل يطاردها طول شبابها وكان سببا فى إجهاضها مرات عديدة .. ثم قالت وهى تربت ظهر الفتاة :

— كنت أتمنى أن تكون لى بنت مثلك ..

ابتسمت « درية » وقد احمر وجهها وبرقت أسنانها تحت الضوء المنسكب :

— ليس عندك بنات ؟

— واحدة تزوجت لكنها ليست مثلك .. وواحدة ماتت .. وأجهضت أربع مرات .. وسمير ابنى فى الرابعة والعشرين الآن ..

— الحمد لله .. يبدو أن أصلكم من الريف يا خالتى .

ضحكت المرأة وهى تقوم إلى مكنة خياطة فى ركن مواجه عليها قماش لم يقص بعد وجلست تقص وتتكلم .. لكن ما لبثت « درية » أن لاحظت أنها غير كثيرة البراعة فحلت محلها .. جلست على كرسى المكنة وجلست الأم تجاهها .. كانت تقص لابنها قماش « بيجاما » تفصله على أخرى قديمة .. وكانت الأم تتكلم : « طبعا من الريف .. وكنت حبيبة أبى لأننى كنت الوحيدة عنده .. هل أنت كذلك » ؟..

فردت وهى مطرقة تعمل :

— لا ..

فاستطردت المرأة وكأن أحدا لم يقاطعها :

— وكنت أساعده فى كل عمل .. وكان هو يعمل كل شىء .. يزرع الخضروات والفاكهة فى أرض غير واسعة .. وينسج السلال والحصير ويفتل الحبال ويصلح مضخات الماء .. ويرمم المبانى الريفية ويعالج الماشية ويحفظ القرآن ويقرأ الأوراد فى الفجر ويحضر مجالس الصلح فى القرية وكثيرا ما كان يقرض الأغنياء مع أنه رجل فقير ..

ــ غريبة ..

وسألت أم « سمير » :

ــ وما صنعة والدك ؟

ــ تاجر خردوات ..

فاستطردت وكأنها لم تسمع :

ــ وهل حزن يوم زواجك كما حزن أبى يوم زواجى ؟

فردت فى تلعثم !

ــ آ .. حزن بعد .. « وخافت فأكملت » زفافى .. غرق فى أحزانه من .. من .. الديون ..

ــ ما دمت سعيدة فذلك لا يهم ..

ــ سعيدة ..

رأت « درية » أنها أمام عينين تكادان تكشفان الغطاء عن سرها ، وشعرت كأن سرها على طرف لسانها هى من طول ما حدثت به نفسها وفكرت فيه فى وحدتها والعذاب يفضى إلى الاعتراف .. وربما يكون العذاب من شخص ويكون الاعتراف لشخص آخر .. لذلك فإن الفتاة تحصنت بالضد .. بابتسامة الهزيمة التى تنسى على الشفتين بمرور الأيام .. ثم كأنها فطنت أيضا إلى أن كثيرا من الناس يخافون التعساء كأنهم يجرون غيرهم معهم .. وما لبثت نظرة المتأمل التى ألقتها « أم سمير » على الفتاة أن اختفت وحلت محلها النظرة العادية وأخذت تقول :

ــ وعندما زوجت بنتى استرحت .. حزننا بسبب ذلك ما يلبث أن يزول ..

فردت « درية » لتغير مجرى الحديث :

ــ العاقبة عندكم يا خالتى ..

سرحت المرأة بعينيها قليلا قبل أن تقول :

ــ ولأولادك ..

حز ذلك فى قلبها وتذكرت لياليها .. إذ حولها ذلك الزوج إلى حديقة للنزهة .. لنزهته الشخصية .. فليس هناك ثمار .. وتذكرت وهى ممسكة بالمقص الذى يئز فى يدها وهو يشق القماش قول أمها لها ذات يوم : « إنه من خلال ما يحدث بينها وبين « سلامة » ستولد علاقات قلبية غير مقصودة ، لكنها تحس أنه ينساها كما ينسى المائدة حين ينصرف عنها بعد الأكلة .. فإذا كان هناك علاقة تربط ما بين المعدة والخوان الخالى كان هناك علاقة بينها وبينه .. وبدا لها كأنها تراه .. وجهه المكور المائل إلى الصفرة وخديه المتهدلين كخدى جرو وشاربه الأسود وشعره القارى وحواجبه فى لون شعره .. ثم رفعت وجهها لتحدث الأم فإذا بها تجد صورة معلقة على الحائط لم تفطن إليها من قبل .. هى صورة لـ « سمير » .. أشارت الفتاة فى استحياء إلى الصورة :

ــ هو هذا ؟

ــ نعم .. « أووف » ..

ــ ما له ؟!

ــ عنيد .. إذا اقتنع بأنه يمشى على السماء والأرض من فوقه فلا يمكن أن يتزحزح .

ضحكت « درية » وغمغمت :

ــ حتى زوجته ؟!

غمغمت الأم بضحكة ونفت بشدة لا تخلو من تهكم !

ـــ لا .. لن يتزوج قبل انتهاء مشروعاته ..

ـــ وما هى ؟

فقالت وقد تدفق ضحكها :

ـــ تغيير نظام الكون .. كان أبوه يرجو له أن يدخل كلية الشرطة ليغير نظام الكون .. ثم تمنى هو أن يدخل كلية الطب لنفس السبب.. وأخيرا دخل مدرسة الخدمة الاجتماعية ولا يزال متأكدا أنه سيغير نظام الكون ..

عندئذ سرحت « درية » تصورت أن حلما من هذا القبيل قد تحقق وأن نظام الدنيا قد تعدل بطريقة لا تجعل مثلها « جانية » .. ثم خطر على بالها سؤال لم تجادل نفسها فى أن « سمير » هذا يعرف إجابته لأنه على وشك أن يكون أخصائيا اجتماعيا وقد كبر كما قالت أمه لأنه رسب فى الثانوية عدة مرات لنشاطه فى مختلف الميادين غير ميدان الكتب ، وقاومت نفسها أن تلقى به للأم .. وهذا السؤال الذى فاه به « سلامة » فى إحدى الليالى التى لم يكن يحس فيها بالرغبة و لم تكن هى تعنيه تبعا لذلك .. كانت تريد أن تعرف : « هل كانت حواء حقيقة مخلوقة بدون هذا الشىء الذى نقصها ؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يرثها بناتها ؟ » وسرحت تفكر : هل ابتهل أحد أبناء آدم إلى الله بعد أن تعددوا أن يضع خاتمه على الفتاة ففعل ؟.. ولماذا قبل الله دعوته ؟!.. هل لأنه يعلم أنهن بدون هذا الخاتم سيكن أوراقا غير رسمية ؟ » ..

ـــ معذرة يا خالتى فقد كسرت الأبرة ..

ـــ لا يهم .. عندنا أبر كثيرة ..

ثم عادت الأم وعادت إلى قصة « سمير » :

ـ لو رأيت مرة كيف يجادل والده .. لقد خاصمه أبوه شهرا لأنه قال له إن وظيفتك من ضمن الوظائف التى تتلف الناس .. فرد عليه أبوه غاضبا وقد شهر فى وجهه تمثالا نحته مسجون : « لكن من نقود هذه الوظيفة تتعلم يا مغرور » .. فهز كتفه وقال له : « لا تغضب فليس هذا ذنبك فأنت والمدرس أمامكما جدول ومنهج » .. وضحك ابنى لكن والده خاصمه بعد ذلك .. سألت « درية » لكى تتدخل فى الحديث فقط :

ـ هل تدللينه يا خالة ؟!

فلمعت نظرة الأم من عينيها الضيقتين وأجابت تؤكد :

ـ عمرى .. لكنى فقط أرى فيه أنواعا من السعادة لا أعرف سرها ..

كانت الأم ترى فى وسامته ورقة إحساسه واندفاعه فى التعبير عن كل ما يشعر به عوضا عما فاتها من زوجها ، وكانت تحس أن سؤاله عن مصدر كل رزق منوط بالشبهة التى تقوم فى نفس الابن عن سلوك أبيه فى السجون .. خصوصا بعدما اتصل عن طريق دراسته بالنزلاء وعرف أنواعا شتى من مآسيهم .. وأخذت الأم تتذكر ليلة شاتية جاء فيها ابنها من القاهرة ليزورهم كما يفعل فى كل شهر .. وكانت مدينة « طنطا » غريقة بالمطر وسحابها لا يفارق السماء ..

وارتفع صوت « درية » على أفكار الأم :

ـ شتاء هذا العام أقل بردا من العام الماضى ..

ـ تمام ..

وعادت « درية » تقص القماش والأم تتذكر :

— دخل « سمير » مبلول الثياب .. خلع ملابسه وجلس مع أبويه أمام المدفأة .. أبوه يأكل فولا سودانيا .. يدفىء حباته على الجمر والأم تخيط على يدها وتطرز ملابس جديدة لمولود بنتها المرتقب .. وبعدما جلس « سمير » عادوا إلى ما كانوا فيه من حديث .. فذكر الأب مأساة السجين الذى ضبطوه وهو يهرب فأطلق الحارس عليه النار من الخلف فخرجت الرصاصة من فمه .. وثار جدال بين الأب والابن عن جريمة الهرب ، حين قال « سمير » : معاملة الناس لهذا الرجل فى خارج السجن هى التى أدخلته السجن .. ومعاملة الناس له فى داخل السجن هى التى أجبرته على الهروب منه .. والرصاص هو الذى حل مشكلة حياته ولكن بقسوة ..

صرخ الأب قائلا : وتقول بقسوة ؟ هل تريد أن تعيده إلى العنبر وأمامه موسيقى .. أنت مخرف .. ماذا تتعلمون ؟!..

وسحب الأم من أفكارها صوت « درية » نديا مشوبا بتعب :

— يقولون إن العنيد غالبا ما يكون ذكيا .. مثل أخى سيد ..

— من أجل ذلك هو يرى أن كل الناس لا يفهمون ..

— إلى هذا الحد ؟

— ربما كنت مخطئة .. عندما ترينه تحكمين عليه .. كم الساعة الآن .. آه .. ربما كان فى القطار الذى وصل الآن إلى المحطة ..

وكان سلامة فى قطار آخر لن يعود منه إلا آخر النهار . ولذلك قررت « درية » أن تبقى حتى ترى هذا الشاب ..

وما لبث الجرس أن دق .. وفتحت الأم ومشت أمامه بخيلاء من تعتز بابنها .. دخل وسلم .. ثم جلس على الكنبه على مقربة من الصورة المعلقة على

الحائط وتم التعارف ثم ظلل الصمت .. أبدى « سمير » تعبا متكلفا ليحظى بالجنان المألوف كما نفعل دائما عند لقاء أمهاتنا .. ثم قام وخلع ثيابه وعاد فجلس .

كانت « درية » مشغولة بخياطة البيجاما .. نظر إليها ثم قال فى دعابة :

— وهل هذه هى تحية الضيوف يا ماما .. تحيتهم عندنا متاعب ؟

همهمت « درية » وهى تختلس النظرات إليه من خلال انكبابها ؟

— تعبكم راحة .

وفكرت وهى توازن بينه وبين صورته فى أيهما أحسن ؟ كان هو بلا شك .. مجموعة من القوى تؤدى حركة ينقصها مدير .. حركة مرور بلا نقطة مراقبة .. عرضة للحوادث .

فهو على ذكائه قد يكون مهملا .. وعلى تكوينه الجسمى الكامل يبدو رقيقا .. بشرة وجهه البيضاء الصفراء ورأسه الكبير ووجهه الواضح وشعره الخشن الفاتح المقصوص قصيرا وجبينه العريض ذو الخليجين .. والناصية من الشعر .. وشفتاه الغليظتان وفخذاه المحشوران فى سراويله .. كل هذا يضفى عليه منظرا غريبا خصوصا عندما أسبل جفنيه فى حالة استرخاء من التعب ..

وتمنت « درية » شيئا .. كان فى قرارة نفسها عذبا وعذابا مثل كل فكرة خطرة أو شاذة يخفيها صاحبها عن الناس ..

تمنت أن لو كان هذا هو الذى قابلها فى آخر طابق من عمارة السيدة زينات .. وتأوهت وهى تنظر إلى الخطوط المتوازية التى لا تلتقى فى قماش البيجاما ذات اللون الأزرق الصافى ..

ولم يكن مصدر هذه الأمنية هو الفارق الواضح بين الشاب الأول

والشاب الثانى .. بل كان شيئا أهم ربما لم تفهمه « درية » هو أنها تريد لمأساتها نقطة بدء واضحة كالتى تذهب لتناجى القبر .. وليس هناك فرق فى هذه الحالة بين أن يكون الشاب بقميص من الحرير أو فانلة من القطن داكنة اللون .. وأخذ تمنيها هذا يتحول إلى إحساس نفسى ثم شبه جسمانى حتى كادت تشعر أن « سمير » قام من مكانه وجلس إلى جوارها ثم ألقى ذراعه فوق كتفها ..

وارتعدت قليلا لكن حركتها على مدوس المكنة كانت كفيلة أن تغطى على كل رعشة .. تلك الحركة التى أتاحت لها أن تظهر ــ بلا قصد ــ رشاقة قدها الصغير ..

وقالت الأم بعد فترة :

ــ كيف حالك يا « سمير » الآن ؟

ــ أى حال يا ماما .. أحوالى كثيرة لأنى أنا شخصيا مجموعة من الناس ..

كانت الأم تريد له أن يتكلم فأجابته وهى تبتسم !

ــ طيب وكيف أحوال هذه « الهيصة » ؟

تنهد .. ثم لبس ، وهو يتكلف شخصية الممثل الحسن الأداء كما كان يفعل فى فرقة التمثيل بالمدرسة الثانوية ، وكما كان يفعل عندما يدخل معاقبا على الناظر فيلبس دور المظلومين ثم دور المرضى المحطمين إذا ما دعى الأمر ، وهو الذى كسب الرهان مرة من خمسة تلاميذ حين استطاع أن يلبس دور المتسول وهو فى ملابس المدرسة ونال عدة نفحات فى ربع ساعة من زوار السيد البدوى الريفيين وزملاؤه الخمسة كامنون عند إحدى النواصى ومعهم كتبهم وكتبه يهللون ويضحكون بعد كل نفحة ..

وعندما سألته أمه عن أحواله بدأ يقص عليها موقفه من الطلبة الذين يسكن معهم ..



(البيت الصامت)

ـــ أسوأ شيء يا ماما أن يكون السكن المشترك محتويا على ثلاثة .. لأن هذا العدد يا آنسة « درية » (استدركت الأم يا سيدة « درية ») متأسف .. هذا العدد غير قابل للقسمة على اثنين .. فإذا ما اختلفنا كان معنى ذلك أن واحدا منا سيكون عرضة لهجوم الآخرين .. وقد كنت أنا دائما هو الواحد المفرد والحمد لله ..

ضحكت « درية » .. رفعت وجهها إليه لتضحك وتعود إلى الانكباب على المكنة فكأنما لوحت له بزهرة ثم أخفتها ..

ورأى الشاب فى هذه الضحكة المختصرة شيئا أقنعه بأن هذه الفتاة تحتاج إلى الضحك .. ولو أنه يعلم أن طريق الإضحاك أوسع الطرق إلى قلوب النساء .. وعاودته شخصية الممثل القديم فأخذ يقول :

ـــ خاصمونى عشرة أيام أولاد الحرام فلما ضقت بذلك وأصبح السكن فى نظرى جحيما كنت أدخل فأقول لأحدهم : « السلام عليكم يا وابور الجاز » .. وأقول للآخر : « السلام عليكم يا طشت الغسيل » .. وأقصد واحدا منهم كثير الثرثرة وآخر كثير الصمت .. لكنهما كانا أولاد الحرام يقابلان كل تحياتى بالإعراض والصمت .. وأخيرا لجأت إلى حيلة .. انتبهى يا آنسة « درية » « ضحكت وهى تهز صدرها مع تماوج حركة المدوس على المكنة » فكرت فى مفتاح مشهور استعملته .. فسألت الأم !

ـــ وما هو يا حبيبى ؟

ـــ ليس هناك امرأة لا تعرفه وأنت تعرفينه يا ماما .. مفتاح البطن ..

وضحكت المرأتان مع « سمير » .. احمر وجهه الأبيض الأصفر وبدت أسنانه المقرضة : أنه يحمل ملامح أمه .. ليس له ذقن أبيه الفظ .. ذلك الذقن

الذى وضع فى وجهه كأنه علامة « هكذا قالت « درية » فى نفسها » .. وبعدئذ قال « سمير » ..

ــ وبما أننى متخصص فى الطبخ وهو إحدى هواياتى قلت فى نفسى ما دام مفتاح القلب قد ضاع فلماذا لا أستعمل مفتاح البطن .. وصممت على أن أعد طبخة تطيش صوابهم .. هؤلاء الذين يعانون من نقص التغذية .. ثم سأل :

ــ هل الآنسة « درية » تعرف اسم الطبخة التى تشبه محطة إذاعة تنوب الرائحة فيها عن الصوت ؟

فغمغمت فى ربكة أحست هى بلذتها :

ــ لا ..

ــ حاولى .. حاولى لكى تصلى ..

ــ السمك ؟!

ــ لا اااه ؟

فقالت بعد تردد وهى تغالب ضحكا شديدا :

ــ الـ .. اليخنى ؟!

ــ ربما .. لكن .. لا أيضا ..

فهمست برقة :

ــ قل أنت اذن ..

ــ النساء أكثر دراية من الرجال بهذه الأشياء .

زمت الأم شفتها وأحست أن مجرى الحديث بدأ يتحول لكنها تماسكت به ، وقالت « درية » للشاب !

ــ الكلمة لك الآن ..

ـــ آه .. حسن .. إنها الملوخية .. الطبخة التى تفضح .. وعندما شموا رائحتها .. هؤلاء الجوعى ..

دخل الثرثار يقول : ما هذا الضجيج ؟! عطلتنا عن المذاكرة .. ما هذه الجلبة ؟ فلما سألته عن معنى الجلبة أجابنى بأنها جلبة الرائحة تلك التى شملت تفكيرهم كأنها أصوات .. وضحك وعانقنى .. ثم جاء « طشت الغسيل » ليجلس معنا على المائدة ..

قالت الأم وكأنما لتخفف من هذا على نفس الفتاة .. كأنما خشيت أن تفتن بابنها :

ـــ « سمير » .. أنت مهرج .. حدثنا عن شىء مفيد .. كفى ..

ـــ آه .. يا ماما .. جئت لأستريح يوما فتدخليننى الزنزانة .. آه .. أنت لا تعرفين كم أحبك ولو أنك تساعدين أبى أحيانا على سجنى .. « وضحك » إننى يا ماما مشغول بالبحث الذى سأقدمه .. وقد ترددت على سجن النساء عدة مرات فى القاهرة ..

هتفت المرأتان :

ـــ سجن النساء ؟!

كانت الأم تعنى أن ابنها وزوجها يدخلان السجون وكل منهما يعمل .. وكانت « درية » تستجيب لخيالات شخصية أطلقها الاسم .. ومنها أشياء تلاقى مثلها فى بيتها ..

وتصورت النوافذ الصغيرة التى تراها عبر الميدان وأن وراءها بدل الرجال نساء وخفق قلبها .. لماذا أحست وكأنها تساق إلى أحد هذه العنابر ؟! ثم زايلها الخوف وحل محله عدم اهتمام كأنما أقنعها حادث طويل المدى بأن السجن

شيء غير مخيف .. ثم قالت للفتى :

ـــ لا بد أنك ترى العجب فى سجن النساء ..

ـــ أنواع كثيرة .. لكن .. الكلام ليس هذا وقت الكلام « ثم وجه الكلام إلى أمه » حمام دافىء يا ماما وأكلة ونومة .. (ثم نظر إلى « درية ») ويكفى هذا منك فلن أطالبك بالأحلام ..

همهمت الأم :

ـــ الأحلام على غيرى ..

وابتسم « سمير » واحمر وجه « درية » التى ألقت نظرة على الساعة فى معصمها وأستأذنت ، فودعتها الأم إلى الباب بينما كان « سمير » يفحص كل شيء فيها وهى تمشى بخطواتها القصيرة المترددة وترد التحية بصوت كأنه نصف نائم ..

٧

دق جرس الباب على « درية » وهى وحدها عصر يوم من أوائل الشهر .. ففتحت بحذر .. رأت رجلا فى هيأة أهل الريف عرفته لأول وهلة .. يمكن لأضعف الناس خيالا أن يصفوه .. وقد وصفه « سلامة » لزوجته وقال لها إنه قد يأتى « وهو غير موجود » حاملا لهم سلة من الزبد .. وعليها أن تأخذ السلة وتدفع الثمن ..

كان واقفا فى خشوع شديد .. على كتفه تلفيعة من القطن وأمامه السلة .. واختلطت فى أنف « درية » روائح الزبد والعشب ورائحة ريفية شهيرة كتلك التى تفوح من أقفاص الدجاج ، يغطى على كل هذا ويطفو فوقه رائحة لزيت عطرى مسح به حسن شيحة شعر رأسه .. وكان يفرك كفيه وهو خافض الرأس واقفا أمام الباب وعينه السليمة تبرق فى فضول .. وعليه جلباب من الصوف نصل لونه لقدمه وأعيد صبغه ثم نصل من جديد ..

ـــ السلام عليكم يا سيدتى ..

ـــ آه .. أنت ..

ـــ نعم .. وهل السيد « سلامة » موجود .. معى لكم ..

ـــ أعرف ما معك .. « سلامة » ليس هنا .. لكنه ترك الـ ..

ومدت يدها لتحمل السلة فحال بينها وبين ذلك خوفا على ثوبها ويدها .. وانحنى فحمل السلة ودلف إلى الصالة ثم نظر إلى السيدة طويلا وعانى شيئا ثم

استأذن فى الخروج تاركا السلام لزوجها الغائب لأنـه صاحب أفضال لا تنسى .

ولما استوقفته لتعطيه الثمن رد عليها بهدوء يوحى بالصدق :

ـــ أخذناه مقدما يا سيدتى ..

كان عليها أن تصدق ولو من باب الاحتياط فلما سألته عن عدد الأرطال وعن الثمن شعرت أنه غاية فى الرخص ..

وعندما وصل إلى باب الشقة عاد سريعا بطريقة من نسى شيئا هاما .. ورجاها فى انكسار أن تسمح له بشىء .

لم تستطع « درية » أن تخمنه بتاتا غير أن حسن شيحة استأذنها كطفل خائف فى أن يتوضأ ويصلى العصر قبل أن يفوت الوقت وحتى يتمكن من صلاة المغرب فى مسجد السيد البدوى ..

و لم تجد السيدة ما يدعو إلى الرفض فتوضأ وأدى صلاته ثم خرج .. تفوح من أردانه رائحة الزيت العطرى الذى يباع عادة عند أبواب الأضرحة ..

غير أن صورته لم تفارق خيالها طوال الليلة .. وجه مظلوم طيب لرجل فقير يحاول أن يتغلب على الفقر بشتى الأساليب .. وحتى الظروف كذلك أغرقت فى ظلمه .. إذ سلبته إحدى عينيه ..

وشمت رائحة أمان غامض تحيط بشخصيته .. وتمنت أن تكون مثله .. يمشى بلا خوف ويعيش بلا تهديد .. وفى سبيل عيشه يحمل الأثقال ..

وعندما بدأت بكشف الحشيش الأخضر عن وجه السلة رأت شيئا حزنت من أجله فقد نسى مسبحته أو لعلها سقطت منه ..

أما هو فقد كان يجول جولته الشهرية المألوفة .. فله فى مدينة « طنطا »

عشرون مهمة .. فهو سيحصل أجر الخدم الذين جلبهم من القرى لكى يوصلها إلى ذويهم كلها أو بعضها .. وله على ذلك أجر ..

سيتعشى فى بيت السيد عبد المتعال الموظف بالبلدية الأعزب ابن الأربعين وسيبيت عنده فهو قد قدم له خادمة كبيرة أرملة ، ولولا هذه الخادمة ما أكل ولا نام مرتاحا .

وبعد أن يقضى حسن شيحة حاجاته فى بيت السيد عبد المتعال الذى يخرج إلى عمله مبكرا يبدأ حسن شيحة فى الحركة إلى السوق .. حيث يشترى ويبيع بأرباح شخصية ولحساب القرويين : أقراطا ذهبية وملابس وأدوية وخلطات من العطارين .. ثم يكون غذاؤه فى بيت آخر وعشاؤه عند طلبة المعهد الدينى هؤلاء الذين حمل لهم الزاد أو النقود ، ثم يبيت عند السيد عبد المتعال فى معظم الأوقات لأن من يطلبه من الناس يسأل عنه عادة هناك ..

وحسن شيحة فقير تمرد على الفقر وإن لم يبد عليه ذلك .. تمرد على الفقر بالنفاق شأن القرويين .. لكنه لم يستطع التغلب عليه بضربة واحدة من تلك التى يهبها الحظ أو المغامرة .. وتمرد عليه أيضا بالشح الشديد و لم يكن يرى فى ذل نفسه لأخذ ما يريد إلا نوعا من محاربة الفقر فهو لم يملك من الدنيا شيئا مشرفا إلا أنه منسوب إلى أسرة غنية فى القرية حذفت لقبها عن أبيه لفقره .. وقيل إن والده كان تابعا لهم فحمل لقب المتبوع .. كما حمله عنتر العبسى ..

وفى حظائر هذه الأسرة لقى حسن شيحة كل أنواع الذل .. فقد كان أيامها ابن ستة عشر عاما يمثل مزرعة لأمراض الريف .. واختاره أحد أفراد هذه الأسرة ليكون « كلافا » يقدم العلف للمواشى مع عم « خليل » العجوز الأرمد .. وكان هو وعم « خليل » رفيقين لا يفترقان .. ينامان فى « عشة »

ملحقة بالحظائر وقبل النوم عادة يبدأ عم « خليل » فى قص ذكريات شبابه ومغامراته مع الوحوش والجنيات وحسن شيحة راقد يحلم بأحلام أخرى .. بأن يتخلص من العوز فهذا هو الوحش وأن يملك مالا وأن يمكنه الزمن من شراء قيراط واحد من أرض هؤلاء الذين أنكروا نسب أبيه إليهم وأطلقوا عليهم لقب « شيحة » مع أنه من عائلة « زين » هذه التى ينام فى حظائرهم لخدمة مواشيهم أثناء الليل ..

ولم يشعر « حسن شيحة » بأبوة عم « خليل » له .. مع أنه كان يشوى له البطاطا وهم يستدفئون على النار .. ويلقى عليه كثيرا من قش الأرز إذا أمطرت السماء وهو نائم ويعتبره خليفة شابا سيجلس على عرش الخدمة فى الحظائر ..

غير أن حادثة ذات شقين نصفها وهمى ونصفها حقيقى كانت سببا فى تغيير مجرى حياة « حسن شيحة » ..

إذ بدأت الشكوى ترتفع من شيء ما وسهر عم « خليل » يفكر بروحانية الريفى وفطنته لمعرفة مواطن الخطر فهداه تفكيره إلى أمر استبعده .. ثم عاد فمال إلى تصديقه .. ثم استبعده ثم عاد فمال إلى تصديقه .. حتى حدث فى إحدى ليالى الصيف بعد هدوء الدنيا والاستغراق فى النوم أن استيقظ عم « خليل » على صوت جسم ثقيل يسقط .. فنهض وتحسس مكان « حسن شيحة » فوجده خاليا منه واتجه بالغريزة نحو الحظائر فألفى المصباح الصاروخ مطفأ فزادت مخاوفه .. لكنه سمع أنينا فتحسس طريقه حتى أشعل المصباح وحمله وأخذ يفتش عما هناك فإذا به يرى الشاب ملقى على ظهره فى شبه غيبوبة وإحدى المواشى فى رجليها الخلفيتين قيد مقطوع وفى عينيها

قلق وذعر ..

وصرخ الكلاف صرخة داخلية لم تخرج من فمه : « عرفنا سر نقص الألبان وموت المواشى .. الله يخرب بيتك يا ابن شيحة يا فاسق » .. ثم جره إلى حيث صب على وجهه ماء ليفيق .. وفى الصباح ضرب من آل زين علقة لا تقل عما يكون فى حالات الدفاع عن الشرف الرفيع هرب بعدها الشاب باحثا عن الرزق فى مكان آخر .

غير أن كان غير قادر على حمل الفأس غير كفء صحيا لأن يجعلها مصدرا لرزقه .. فقصد إلى أحد المقاولين فى قرية مجاورة وكان بطبيعته محتاجا إلى مثل « حسن شيحة » لا للخبرة التى يحملها ولكن لشيء آخر فهو مشهور بطول اللسان حتى إن كثيرا من الذين يخدمونه خدمة شخصية لم يتحملوا شتائمه .. وهناك استقر « حسن شيحة » .. يمشى وراءه ويحمل له حاجاته .. وعندما تهيج فى الرجل تلك الحمى الشاذة يتعرض هو له ليصب فيه سم لسانه ويقابل كل هذا بابتسام .. وفى الليل ، فى خيام العمل ، يخلع له حذاءه ويقدم إليه حماما من الماء الدافيء ثم يقبع عند رأسه حتى ينام .. وشعر المقاول أن هذا الشخص أحسن مثال لما يرجو فأغدق عليه ، وبطبيعة البخل والخوف ادخر « حسن شيحة » كل ما جمع وعاش على بقايا المتبوع حتى ظهرت الطبيعة الإنسانية على سجيتها ذات يوم بعد بضعة أعوام .. فلما بدأ المقاول يسبه حملق فيه فما كان من المقاول إلا أن لعن أباه .. فرد « حسن شيحة » أمام الناس ردا لم يكن معقولا « وهل أبوك أحسن من أبى » لم يشتم بل وازن فنال من يد المقاول ويد رجل آخر مثل تلك العلقة التى أخذها دفاعا عن الشرف الرفيع فى حظائر آل زين وهو شاب فى مقتبل العمر . ثم انفصل عن المقاول لأعمال غير منتظمة

كان آخرها أن أصبح هكذا رجلا قادرا على أن يشترى للناس ويبيع لهم ويخدعهم وينصحهم .. ويساهم فى جمع التبرعات للموالد ويتسلل فى الليل إلى أماكن الريبة ويدخر فى صندوق التوفير وقد جاوز الأربعين و لم يتزوج .. ذو شكل قبيح وخصال متضاربة حتى أحبه المتناقضون جميعا ..

* * *

وعندما جاء « حسن شيحة » هذه المرة يحمل لبيت السيد « سلامة » شيئا فى سلة ، وقف فى الصالة كما هى العادة ووقعت نظرات « درية » عليه .. لم تر فيه ما قد رآه فيها .. كانت تحس أن مثله لا يخاف .. لماذا ؟ لم تستطع أن تعلل .. تلك الملامح الثابتة والسحنة غير المبالية فى غير استسلام ولا تبجح .. أشعرتها أنه فى مأمن يقدر صاحبه على منح الأمان .. وكان الأمان أعز ما تتمنى امتلاكه .. حين ينقضى نهار العمل فتسلم للوسادة رأسها مع شخص يشاركها نفس الإحساس والمصير لذلك فإنها أطالت النظر إليه مليا عندما جاء هذه المرة .

أما هو فقد كانت أولى مغامراته فى حظائر آل زين فأضحكت منه الشبان والفتيات فى القرية ، وأسقطت وزنه كرجل .. وكل فتاة أرادت أن تداعب صديقة لها فى الحقول أثناء العمل ابتهلت إلى الله أن تتزوج من « حسن شيحة » فيرتفع صوت الضحكات من بين أشجار القطن أو خطوط البطاطس .. لذلك فقد استحال عالم هذا الرجل إلى اختلاس وخداع فى المعاملات ومع أحط النساء .. فلم يشعر مرة أنه فى كفة ميزان مع امرأة يد الحب تحرك الميزان فيتحول إلى أرجوحة سحرية ..

وإذا كان حرمان ذلك الشاب ذى الفانلة الغبراء الذى لقى « درية » فى

عمارة السيدة « زينات » يولد الضراوة فإن حرمان « حسن شيحة » يولد الفضول والانتظار الطويل خصوصا بعد ما رأى نظرة عين فى غموض المجهول وإغرائه بالنسبة لرجل لم يعرف الامتزاج الآمن قط فى عالم النساء ..

كان فى السلة المستديرة التي يحملها هذه المرة حمولة من الأرانب .. منها زوجان أو ثلاثة للسيد « سلامة » الذى لقيه منذ أيام فى القطار ووعده بأن يوصلها إليه فى البيت ..

كان النور مشعلا فى الصالة وهو راكع يرفع الغطاء عن السلة .. وعندما أخرج المطلوب وقدمه « لدرية » ذهبت به إلى المطبخ لكى تعود ومعها مسبحته التى نسيها فلما عادت رأت ما أذهلها .. كائنات مذعورة تجرى بخوف على حريتها فى النور والظلام بيض وسود .. خرجت من السلة عندما ملأت خياشيمها رائحة خبز أو شىء أخضر آت من المطبخ الواقع على اليسار .. تلك هى الأرانب .. كان هم « حسن شيحة » أن يحول بين الباقى وبين الفرار فركع يحكم الغطاء على السلة ..

وعندما لاحت « درية » من باب المطبخ ووقع بصرها عليه أطرق وهو يتمتم أسفا . غير أنها تركت كفيها يتلاقيان على بطنها فى خبطة حائرة وهى تسأل ماذا تعمل .. فبعضها دخل حجرة النوم المفتوحة ليتوارى فى الظلام وبعضها توارى تحت المقاعد وبعضها لبد فى ركن يحرك شاربه ويحملق فى خوف على حريته التى خطفها بوثبة ..

وأخذ الشك ربة البيت فى أن هذا الذى حدث ربما كان مقصودا لكنها أزاء هذا المنظر لم تلبث أن نسيت خوالج الشك .. وبسرعة بديهة غطت السلة التى تشغل الرجل بصينية من النحاس ثم أشعلت النور فى المسكن كله وأمرته أن

يتقدم لمطاردة الأرانب ..

ووقفت هى تفكر : « ماذا تعنى الحياة فى هذا المسكن ؟! إنها تطارد هكذا » .. هذه الأرنبة البيضاء ذات العيون التى كأنها أفعمت كحلا وذات البطن الكبير الذى يدل على أنها حبلى تبدو فى الركن منعكسة صورتها فى مرآة زينتها وقد تتابعت أنفاسها وانتعش شعرها القطنى — واقفة بانتظار قبضتى « حسن شيحة » ..

وخيل إليها أن فى هذه الشقة روحا شريرة ضد الحرية والسعادة .. حين ارتفعت فى لحظات المطاردة صفارة من السجن ونظرت فرأت « حسن شيحة » يلهث وقد وضع ذيل جلبابه فى فمه وقد أمسك زوجا من الأرانب واحدة فى كل يد .. ثم اتجه بهما خارجا إلى الصالة ..

رأت « درية » ظهره وساقيه المعوجتين وبهما آثار جراح فخيل إليها أنها فى غابة .. تركت ضحكة حرة فى صفاء رنين الفضة تخرج من فمها .. لم تضحك مثلها منذ أمد .. منذ كانت تحت ستار من الأمان لم يهتك عنها إلا قبيل دخولها هنا .. وكان سر ضحكها أنها تخيلت « حسن شيحة » ثعلبا يطارد الأرانب فى إحدى الغابات .. وتخيلت نفسها طائرا جميلا فى الغابة .. وممكن كذلك أن يتحول إلى مطاردتها .. حجرة نومها هذه التى لم تر الأمان فيها منذ عرفت جدرانها الزرقاء المطلية بالجير ..

ودخل « حسن شيحة » يلهث .. وألقى نظرة على السرير المفروش بغطاء من الحرير الأزرق وعادت إلى خاطره ذكريات مغامراته الأولى فى الحظائر فتنهد وأحس بالخسة ثم ضحك كأنه يسخر من شخص لا يعرفه حين وقعت عينه على وجه السيدة الواقفة أمام المرآة تنظر إلى الأرنبة البيضاء فى الركن وقد

عبق جو الحجرة بروائح العطور والمساحيق والإنسان والحيوان .. وبذكرى ليالى الذل للمرأة الواقفة هنا والرجل الواقف هناك .. وبنظرات الخوف من عينى الأرنبة البيضاء ..

وفجأة هتف « حسن شيحة » وهو مضطرب النفس قائلا لـ « درية » :

ـــ ساعدينى من فضلك ..

كان هناك نوع من الأرانب الجبلية فى مثل ضراوة القطط .. فى عينيه نظرات النذير .. وبعضها تحت السرير فى الظلام .. وتحمل « حسن شيحة » هذا العبء وحده لكنه عندما رفع رأسه رآها راكعة فى النور تحاول إمساك أرنبة فأغمض عينه السليمة ودخل فى دوار .. كان قدها الصغير يتحرك فى مرونة لم يستطع تصورها قط ولم يكن ثوبها القصير قادرا على أن يدارى ما فوق ركبتها فضلا عن سرعة التنفس واحمرار الوجه وضحكة غير مقصودة أو لهثان لم يحسب حسابه قط ..

وأخيرا أخذ سلته وخرج بعدما دخل مخدعا تفوح منه رائحة حفظتها ذاكرته .. ولا يمكن أن تنساها .. وسلم عليها وهو عند الباب فشعر أن قلبه يغوص .. وتعثر وهو نازل عندما اغرورقت عيناه بالدموع .. لم يدر لماذا أحس بالتعاسة وبشكل واضح .. كأنما كان بشرا منذ لحظة ثم تحول إلى كائن أدنى .. وأدرك الحالتين وفكر وهو فى ظلام السلم أنه كان مخطئا فماذا كان عليه لو .. « غير معقول » .

هذه الكائنات التى أطلقها أتاحت له فرصة لم يكن ليراها طول حياته ، وها هو ذا يذكر منظرها بالتفصيل .. وفى هذا المساء نفسه لا بد أن يشترى زجاجة من العطر الذى تستعمله ويقربها من أنفه كلما نام ويغمض على عبيرها



ماذا تعنى الحياة فى هذا المسكن ؟! إنها تطارد هكذا !!

عينيه .. هذه التى لم تبد شكا فى تصرفه و لم تلمه و لم تشتمه .. بل إنه أحس فى نظراتها لينا و فى موقفها شيئا من الإهمال ..

وهناك فى بيت السيد « عبد المتعال » نام مهيض القلب يشعر بمسئولية من يعمل عملا فوق طاقته أو يلبس زيا غير جدير بمهنته .. خزى وخوف ولذة مهزوزة .. ظمآن يتلقف حبات المطر بشفتيه ..

* * *

أما « درية » فباتت ليلها تبكى .. فقد أعادتها إليها نظرات « حسن شيحة » ذكريات نظرات ذلك الشاب الذى لقيها فى عمارة « زينات » وكأنه خرج لها من الحائط كما تخرج العفاريت .. وأعادت إليها نظرات الأرنبة البيضاء التى كانت لائذة بأحد أركان غرفة نومها — ذكريات نظرتها هى .. بعينيها المفعمتين بالكحل .. ليلة التقت بسلامة منذ شهور .. ثم أشعل النور وحملق فى وجهها وهو جالس عند أقدامها ثم أطرق وهو يلقى بكلماته المخيفة ..

وفى وحدتها هذه قررت بينها وبين نفسها حقائق تحيط بها منها انشغال أمها بأختها المخطوبة ومنها ضعف أبيها من مرض طارىء .. ومنها أن على الغريق أن يعوم وإلا فلا يلوم .. وأن « حسن شيحة » يراها كالقمر فى السماء وأن « سمير » ذو موقف غامض .. وأما الشيء المهم المتعلق بحياة زوجها معها فهو معركة القوى فيها غير متكافئة لأسباب اجتماعية لكنها مثل تلك التى دارت على أرض غرفة نومها هذه الليلة ..

* * *

وفى آخر نهار اليوم التالى عاد زوجها ..

لاحظت أنه عندما دخل بدا طويل القامة منكفئا إلى الأمام قليلا كأنما كانت بين كتفيه سنام .. فى عينيه انطفاء لم تتعوده من قبل .. انطفاء من لا يحمل فى رأسه فكرة تطل من عينيه مع تعب من طول التفكير .. وخداه المكوران تدليا بزيادة قليلة إلى أسفل ومشيته متخلعة كأحد جنود الفلول ..

هل أحست بالرثاء من أجله ؟!.. شىء من الأسى لمس قلبها ثم امتلأت فضولا .. وطلب الطعام فى إهمال لكنه جلس يأكل مثل وحش .. و لم يبادلها حديثا ولا نظرة ثم قام فأوى إلى فراشه حيث نام كالقتيل ..

أما هى فقد شغلت نفسها بدق رف من الخشب تحت إطار النافذة الواقعة على الممر لتضع عليه صفا من الأصص ..نعناع وريحان .. وربما قلل فى الصيف .. وفوق هذه الحديقة المعلقة شدت حبلا للغسيل بين مسمارين .. وعليه علقت قميص نوم من الحرير فى ظل جاكتة لبيجاما زوجها حتى بدت القطعتان وكأن البيجاما تحتضن القميص .. ذلك للعين التى تنظر من شباك أم « سمير » .. حيث يحتمل أن يكون ابنها هناك ..

وبما أن كل اتجاهات من ضل الطريق متساوية ما دامت لا تؤدى إلى غاية ، فإن « درية » لم تكن تفكر جديا فى أى اتجاه .. إنها لا تجد جوادا تراهن عليه .. وقد حدثتها أخيرا أمها عن السعادة التى تنعم بها بنت إحدى جاراتهم بعد أن أنجبت طفلة جميلة ثم احتفلت بعيد زواجها لثالث مره .. وكلما رأتها الأم ذكرت الخديعة وذكرت التعاسة التى تعيش فيها بنتها « درية » ..

وارتفع من شباك أم « سمير » ذاك العراك المألوف الذى ينشب أحيانا بينها وبين زوجها السجان .. صوته الضارى وصوتها الرفيع ينفصلان ويشتبكان فى سلم موسيقى كريه .. لكنها على الرغم من أى شىء متعلقة القلب بهذه

النافذة وتتمنى أن لو كانت مأساتها قد بدأت من خلفها ..

وارتفع من دكان الرفاء كذلك صوت غناء لمهرج أعقبته ضحكات من الصناع والباعة ذيلتها دعوة منغومة محسورة لسائل على الرصيف المحاذى لبيت « درية » مصمصمت لها وهى ترمى ببعض الفتات لقطة على ظهر الدكان المبنى فى الممر وقلبها يختلج من غمزات الخوف والميل للضحك والبكاء والتطلع نحو المجهول ..

وسمعت صوت زوجها فى الغرفة الأخرى يسعل فقامت إليه .. أشار إليها بأن تجلس على حافة الفراش ففعلت وخيم صمت شعرت فيه أنه فى حاجة إليها .. حاجة من يريد ويكره ويدارى حقيقة مشاعره عمن يعامله .. كمن يرفض بلسانه ويده تمتد ..

وكانت « درية » تحملق فى الركن التى جثمت فيه أنثى الأرنب من قبل وخيل إليها أنها تراها بشعرها القطنى وعينيها السوداوين .. وتذكرت قبضة « حسن شيحة » حين أمسك بها فارتجف فيها كل شىء .. لكن « درية » فى هذه الوهلة أحست بذراع « سلامة » يطوق عنقها .. ويدعوها فى صمت محزون ..

وفى ظلمة الحجرة أحست اضطراب أنفاسه .. وراودها أمل معقول فى أن تصير أما طيبة .. وجاهدت نفسها لتضفى عليه من الحنان ما قد يكفر عن خطيئة ماضية أو مستقبلة كأم تنزع الضمادة عن جرحها لتضمد جرح ابنها العاق .. أدركتها فى ظلمة الحجرة ميول المستشهدين هكذا .. وكان هو يشعر بموجة جديدة من الرضا والاسترضاء كان جائزا أن تعطى ثمرتها لولا الشىء الجديد الذى جثم على قلبه ..

وأحست « درية » أن الموقف لم يجد فيه جديد .. لم يزل يعتبرها حتى الآن امرأة خارجة عن أن توصف بوصف ما ولا حتى مأجورة .. وعندئذ طوحت ذراعه لتخلى لنفسها طريق الخروج فأحس بمغزى حركتها فأمسك يدها بقوة لا تفلت وهمس فى ضجر :

ـــ أين أنت ذاهبة ؟

ـــ إلى جهنم ..

ـــ مؤكد .. لكن الطريق المؤدى إلى جهنم يحتاج قطعًا إلى وقت .. ابقى معى لتسمعى .. حكاية سأحيكها لك .. أنت ورائى فى كل مكان .. لا أعرف ماذا أريد أن أقول .. أحيانا لا يستطيع القاتل أن يتخلص من المقتول حتى ولو دفنه تحت الأرض السابعة ..

شهقت .. وبدا اضطراب أصابعها وهى تمسك بلحم كتفه .. لكنه استدرك قائلا :

ـــ لا تخافى .. لست أقصد ما دار بذهنك .. كل ما أقصده أننا حبسنا فى قبو لا باب له ولا شباك .. نكره بعضنا ونفعل ما نفعله الآن ، ولو رأى واحد منا جثة الآخر تحت قدميه ربما بكى ..

ـــ تبدو الليلة مجنونا عاقلا ..

ـــ إننى أدافع عنك ضد نفسى وقد دافعت عنك يا كذابة ضد القاتل صباح اليوم ..

قالت وفكها يرتعد :

ـــ مجنون ..

* * *

كان قد عاد اليوم من مركز الشرطة حيث أدى الشهادة كما رأتها عينه .. ففى قطار الركاب الذى يخترق الصحراء مساء إلى القاهرة من شمال الدلتا لم يكن الركاب كثيرين .. الوقت فى أعقاب العيد والأحباب تزاوروا والطلاب عادوا .. وصالونات الدرجة الثانية والأولى تكاد تكون خاوية مصابيحها تضىء الكراسى والممرات .. أما الدرجة الثالثة ذات الكراسى الخشبية فقد تناثر فيها ركاب قليلون ..

كان « سلامة » يمر فى القطار فوقع بصره على شاب وفتاة فى مقتبل العمر يكادان يكونان فى العربة وحدهما .. جلسا جنبا إلى جنب يتهامسان .. وكلما رأيا أحدا كفا عن الهمس .. كان ممكنا أن يكونا حبيبين يجتازان عتبة التجربة فى حذر وتردد .. وكان جائزا أن يكونا أخا وأخته .. هو فى الثانية والعشرين وهى لم تتجاوز الثامنة عشرة . وجهها تحت ظل الطرحة المسبلة على جبينها يشى بجمال متوسط أهمه أهداب عينيها ثم روح ذات رائحة أخاذة على شدة نحافتها ونصاعة لونها .. تدغدغ الكلمات كأن فى لسانها بقايا لكنة منحت نطقها سرا وضحكتها مخطوفة لا تستتب .. تولد وتموت .. وهو إلى جوارها يحدثها أحاديث تثير ضحكها أحيانا وأحيانا تجعلها على وشك أن تبكى ..

كان « سلامة » يعلم أن تذاكرهما إلى القاهرة .. غير أنه لأمر ما لذ له أن يراقب هذين الشخصين فقد ذكر حادثة غرام اكتشفها مرة فى قطار الليل أيام الحرب والمصابيح مفقودة والصالونات شديدة الظلمة ، وعجب ليلتها حين تبين أنهما زوجان يعملان فى فرقة تمثيل جوالة .. لكن .. هذه القروية وهذا القروى ؟!

وانزوى فى أحد أركان العربة وتناوم .. وأخذ الوقت يمر والعربة تهتز كأنها

غربال .. ومن خلال أجفانه رأى الشاب يميل على الفتاة ويهمس إليها بكلمة تلفتت بعدها فى كل اتجاه وبدا عليها أنها تفحص المكان ثم صدرت منها إشارة تفيد أنه لا داعى لما يقول .. وظلل صمت .. أطرقت معه الفتاة قليلا لكن الإصرار بدا على الشاب وقام فقطع ممر العربة حتى وصل إلى نهايتها ووقف عند القنطرة المفتوحة الواقعة بين العربتين وألقى نظرة على « سلامة » الذى أخذ يشخر نائما ..

وما لبث الفتى أن عاد ومال على الفتاة يغريها من جديد فقامت معه .. أمسك كفها وسار أمامها .. كانت مدفوعة خلفه كأنها فقدت مصيرها .. وكان هو يتبختر ويتلفت حتى إذا ما حاذى سلامة ألقى عليه نظرة .. وكانا قد وصلا إلى نهاية العربة ففتحا الباب المؤدى إلى القنطرة المكشوفة بين العربتين ثم عبر وأقفل الشاب الباب ..

وفجأة قام « سلامة » وحملق من الشق الواقع بين الباب والجدار الخشبى للعربة ليرى ماذا سيفعل الفتى والفتاة .. رأى الشاب يعبر القنطرة إلى العربة الأخرى والفتاة لم تعبر بعد .. والقطار مسرع فى حركة مثل حركة الغربال تدعو للحذر .. وغمغمت ضاحكة :

— خايفة ..

وكان فى لهجتها خوف حقيقى .. فهتف وهو يمد لها يده :

— لا تخافى .. تعالى .. ناولينى يدك ..

وعندما أعطته يدها جذبها نحوه بسرعة ثم أفلت يدها فجأة فتكورت بين العربتين قليلا وتلاشت صرختها مع صوت الحديد ثم سقطت تحت القطار ، ثم صرخ الشاب مستغيثا ..

كان « سلامة » فى حلم فظيع وهو واقف يراقب المنظر وفى حسابه أنه سيرى عاشقين مثل هذين الزوجين اللذين كانا فى المقصورة ..

فما كاد يفيق ويثب إلى العربة الثانية كأنه مستجيب لاستغاثة الشاب ودموعه حتى أمسك به « سلامة » وأخذ يصيح :

— أنت قاتل .. تركتها تهوى .. لماذا انتقلت بها إلى العربة الأخرى ؟!

* * *

وعندما كف « سلامة » عن الحديث قامت « درية » وأشعلت النور ، شعرت أن فى الحجرة أشباحا لا بد أن تطرد .. وعادت فجلست فى الفراش .. أمسك الزوج بيدها فألفاها باردة ووجهها فى بياض الجير .. وعادت إليها صورة الأرنبة البيضاء والأصابع الخشنة وهى تطبق عليها فأحست أنها عاجزة عن التنفس .. ونظرت إليه فإذا الجد يلون صفحة وجهه غير أنها همست قائلة :

— « سلامة » ..

— ...

ونظر إليها حتى كادت ترى فى عينيه نظرات من حكى عنه ..

تلجلجت قائلة :

— لماذا .. تخيفنى .. أنا أشعر كأننى فى غربال ..

ووضعت كفيها على صدغيها ودارت عينيها :

— أنا أشعر أن لهذه الحكاية .. آه .. ماذا تريد منى أن أفعل ؟..

« ومن خلال نشيجها » لقد طردت نصفى من البيت وأبقيت معك نصفى ..

ـــ يعنى ؟!

ـــ أنت تفهم ما أريد .. طردت « الإنسانية » واحتفظت بما عدا ذلك ..

ـــ دموع ؟!.. ذكرتنى بالليلة الأولى ..

ـــ كل ما يقابلك فى الخارج تحمله معك ثم تدخل وتصبه على رأسى ..

ـــ أووه ..

ـــ قل لى .. هل كان هذا الشاب زوجا للفتاة ؟

صمت كمن يفكر ثم رد فى همود :

ـــ لا .. أخوها ..

ـــ مخيف .. لكن .: هل هو بسبب ذلك ؟

صرخ كمن يدافع عن شرفه :

ـــ آ آه .. أصحاب المصلحة الواحدة يدافع بعضهم عن بعض حتى ولو كانوا غرباء .. أنت تدافعين عن ..

ـــ عن ماذا ؟!.. عن « روح » .. ومع ذلك أنا مستعدة لأن أدافع « عن الشىء » الذى تحاسب عليه .. لكن .. لم يكن معى سلاح القادر لأدافع به عن نفسى .. لا وقتها .. ولا الآن ..

كان يستمع لها فى تأثر شديد .. ما دافعت عن نفسها قط بهذه الحماسة حتى فى الليلة التى تخافها كل فتاة .. لكنه كان يجد بابا للقبو الذى حبسا فيه .. أحرجه العرف والمخاوف .. إن تركها حام حوله التساؤل ، وإن أبقاها شرب أحدهما العذاب .. بل كلاهما .. وأحس أنها الليلة مربوطة إليه بشعرة بلغت غاية التوتر .. ثم خامره خوف جديد كان مصدره أنه خوفها .. فمن الجائز أن يتسابق الخائفان كل إلى إهلاك الآخر .. وكان يتبين أنه يربى فى بيته عدوا له ..

كل يوم جرعة من الكراهية حتى تتكاثف الأحقاد وعندئذ يحدث شيء ليس في حساب الطرفين ..

ثم .. بقدر ما يكون الخوف يكون التخويف .. ولأن منظر الفتاة التى رآها تسقط هز أعصابه فقد كان نهبا للمخاوف ..

ومن أجل ذلك قال بعد سكوت طويل يخوفها بقدر ما هو خائف :

ـــ سمعت منك الليلة كلاما غريبا .. لماذا أنت خائفة منى هكذا ؟!.. لقد عرفت فى القطارات أشياء كثيرة حقيقية .. لكنى لست مخيفا للحد الذى تتصورينه .. إحم إحم .. آ .. إننا فى القطارات نلتقى باللصوص وقطاع الطريق والهاربين والمهربين والقتلة وجثث فى حقائب .. و .. و ..

وعندئذ تركت حجرتها وخرجت مسرعة .. أوت إلى حجرة أخرى وسهرت تبكى .. كانت القطة التى أطعمتها الفتات على ظهر الدكان تحت النافذة تموء فى استرخاء .. وجعلت « درية » تتذكر منظرها .. سوداء حالكة كقطعة من القطيفة وعيناها هما الشيء الواضح فى هيكلها .. وفمها الأحمر إذا ما فتحته .. وتذكرت الوسائد المخملية التى فى رجليها وقد كمنت فيها الأظافر .. سلاح .. فى كيس من الحرير .. سم وترياق يحمله المخلوق .. وعندئذ سألت نفسها : « وأين أظافرى يا ترى » ..

ثم أخذتها غفوة ذات طعم نادر تشبه توقف تيار الحياة بالموت فقد استهلك العذاب ما بقى من قواها ..

واستيقظت على صوت باب يفتح حسبته باب حجرتها لكنه كان باب الشقة .. وسلامة هو الذى يدير المفتاح ويدخل .. والشمس ترسل أولى أشعتها من خلال الشجر فى الشارع وبغلة عظيمة الكفل تعانى فى جر عربة

محملة بالبرابخ تابعة للبلدية يصرخ خلفها سائق وفى يده كرباج قديم ..

وسمعت « درية » حفيف أوراق فى الصالة .. منتشرا متقطعا عرفت أنه من جريدة تقرأ نزل هو واشتراها وعاد .. وعندئذ وجف قلبها .. فقد فهمت من عينيه وهو يحكى الدافع إلى الحادث .. وأحست أنها تعرف هذه الفتاة .. وأخذت صورتها تتجسم لها حتى كادت تلمسها .. رقيقة بخدود مليئة .. خصرها لا يتحمل شدة حزام .. تلك التى .. « آه .. عجلة قطار » ..

وسمعت نقرة على بابها فخرجت .. كانت كفه الكبيرة ترتجف قليلا وهو يقدم لها صحيفة الصباح .. وأخذتها منه .. وفى خيالها أنها ربما وجدت صورتها فيها .. صورتها هى .. لكن عينيها ما لبثتا أن وقعتا على صورة زوجها .. كان وجهه تجاه وجه الفتاة المقتولة كأن بينه وبينها سرا .. ووجهه المكور تبدو عليه القساوة .. أما الشاب فقد كان جديرا بأن يكون مغنيا على الرغم من أنه فى هذا الموقف ذو وسامة تتنافى مع ملبسه الريفى وله شارب رقيق .. أما الفتاة التى شطرها القطار نصفين فقد كان منظر عينيها المغمضتين لا يدل إلا على النوم .. وعلى الوجه المنزوف براءة كأن ما يخص « الإنسان » من فضائل قد تجمع على الوجه وحمل باقى الجسم بعده ما لا يخص الإنسان ..

كانت وحدها فى الحجرة ترى أمامها عالما مائجا فى الصحيفة .. وكان على اضطرابه قبل ذهابه إلى الحمام يبدو فرحا بصورته المنشورة .. وفى هذا العالم الذى تمثله الصفحة عرفت « درية » كثيرا من أسرار الفتاة التى خمنها المحقق وإن لم تصل هذه التخمينات بعد إلى مرتبة الحقائق ..

« من المحتمل أن تكون غير عذراء .. إن شقيقها ينكر الحادثة إنكارا تاما .. ويدعى أن الحذاء العالى كان سببا فى سقوطها وهى فى طريقها إلى

دورة المياه » ..

« سأله المحقق : وهل من عادتها أن تلبس حذاء عاليا ؟ » ..

« ولكنه رد بأنهم كانوا سيزورون فى القاهرة ناسا محترمين » ..

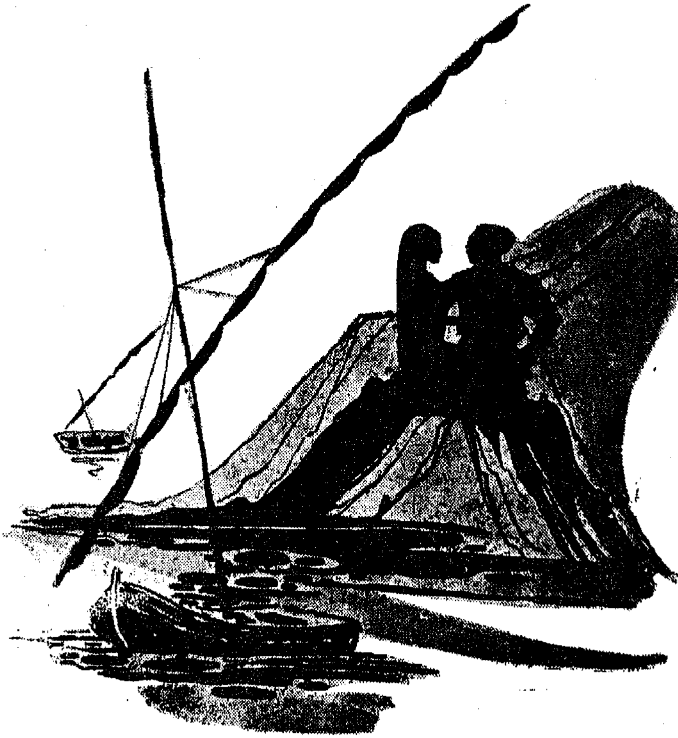
إن تقدير القاتل لم يحطه التوفيق فلو أن الجثة فرمت أو شطرت بالطول لتغير وجه التحقيق لكن بما أنها شطرت نصفين علوى وسفلى فإن السر سيتضح ..

وحول هذا وذاك فى الصحيفة صور لناس ولجسر السكة الحديد المرتفع عند قرية الكوم الأحمر ثم صورة أخيها الذى تدل ملامحه على أنه لا يمكن أن يكون قاتلا ..

* * *

ولم يجدا شيئا يقولانه على طعام الفطور .. فكل كلمة ستعتبر منزلقا ، وعندما بدأت تصب له الشاى لم يفطن أحدهما أنه امتلأ وسال الشراب الأحمر على المفرش ، لكن كلا منهما تناول ما يستطيع أن يأكل ولبس هو وخرج .. ثم ما لبثت هى أن فعلت نفس الشىء ..

كان المهم أن تغادر هذه الجدران .. واتجهت نحو شارع السكة الجديدة ومالت لتسلم على الحاج يحيى فى مقلى الحرمين فإذا به مشغول بقراءة الجريدة .. ووقفت أمامه قليلا ثم أخذت طريقها ومضت .. عن لها أن تذهب إلى بيت أبيها لكنها تراجعت من عند الباب .. وعند مرورها على ضريح البدوى ملأت أنفها روائح العطور فردتها قليلا إلى أيام خلو البال .. وظلت تمشى وتمشى فإذا بها تجد نفسها أمام عمارة السيدة « زينات » .. فوقفت تفكر .. ما الذى أتى بها إلى هنا ؟! وتمنت فى هذه اللحظة أن لو لقيت ذلك الشاب .. خيل إليها أنها تذكر ملامحه الآن وأن كل منظر مقارب مر بها ثبت ملامحه فى ذاكرتها ..



سحر القمر غلبهما ذات ليلة ..

وهمست لنفسها : « وماذا سأفعل .. » .. ثم عادت أدراجها نحو شارع السكة الجديدة وملأ الضجيج المألوف رأسها وهى تمشى غير أنه لم يقهر أفكارها عن المستقبل المتأهب للهجوم ..

وفى اليوم التالى لم يكن « سلامة » موجودا .. كانت ورديته بالنهار وسيعود بالليل ..

واشترت صحيفة الصباح وانكبت على الأنباء كأنها تخصها ..

كان يهمها أن تعرف ما يهم كل امرأة فى هذه القصة .. وكان هناك صورة لأب له شاربان مصوبان .. وأم على وجهها ملامح جمال .. وصورة شمسية للفتاة تجبر القلوب أن تتحيز معها .. وموجز قصتها أنه عقد قرانها على صياد غرق فى النيل فى ليلة باردة بعد أن كانت ستزف إليه بعد شهر لكنها لجمالها وحسن مشاركتها فى أعباء المعيشة تقدم إليها شاب آخر بعد وفاة الأول بسرعة ، لكن الإشاعات أخذت تترامى إليه بأنها كثيرا ما كانت تلتقى معه على شاطئ النهر ليلا حين يخرج للصيد وأن أمها عرفت صحة ذلك من رائحة السمك التى عبقت بها ملابسها ذات ليلة وأنها نهرتها ، لكن الأم فى قرارة نفسها كانت مطمئنة إلى أنهما زوجان فلم تول الموضوع اهتماما أكثر .. لكن الإشاعات كانت شاعرية ذات مرة .. إذ انتشر بين الناس أن سحر القمر غلبهما ذات ليلة وأنها رؤيت وهى تهرول عائدة إلى الدار وهو يجرى وراءها .. ولا يستطيع أن يرفع صوته بالنداء .. لأن طرحتها كانت فى يده .. نسيتها المسكينة .. بيد أن هذه الاشاعات لم تجعل الشاب الآخر يتراجع .. فقد كان كسولا يريد شريكة نشيطة وكان دميما يريد شريكة جميلة .. وكان وحيدا يحلم بالأنس .. لكنه على الرغم من كل ذلك أحس هو وهى ليلة الزفاف بقلق

كانا تحت سلطانه أشبه بسمكتين يطاردهما شبح الصياد الميت ..

ثم .. صرخ فيها ليلة الزفاف قائلا : لقد صدقت الإشاعات .. يا للمصيبة .. أما هى فحاولت أن تذكر تفاصيل الماضى فلم تعثر على التفاصيل .. كان كل شىء فى ذاكرتها ظلا لألعاب لذيذة فقد لفها مرة فى الشبكة القديمة وحملها على ظهره ومشى يغنى ويتمتم مغمغما بالضحك .. « صدت جنية .. صدت جنية » .. وفى هذه الليلة شمت أمها من ملابسها رائحة لصياد ..

وعلى الرغم من قوة شخصيتها فإنها لم تستطع أمام زوجها الجديد أن تقول كلمة ما .. ووجدت نفسها فى شبكة من نوع آخر غير الذى لفها فيه حبيبها القديم .. ثم ردت إلى بيت أبويها ..

كانت « درية » تحملق فى صورتها دامعة العين .. ومع ذلك كانت تجد أن هذه الفتاة أسعد حالا منها .. لقد وقف عذابها على الأقل .. وكان هذا العذاب غطاء للذة سبقت .. وجه آخر للحياة .. فمن استدفأ على اللهب تحمل اللسعة .. وكانت « درية » لم تكمل بعد قراءة قصة الفتاة .. كانت مشتاقة أن تعرف ماذا قال الطبيب عن سرها .. قال : « عذراء .. وزوجة معا » ..

إذن فهى مظلومة .. لمت شعث أعصابها وخرجت .. طرقت الباب على أمها وهى متجهمة .. ثم جلست مختلية بها .. وحدثتها عن حوادث هذه الفتاة فقالت أمها إن والدها عاش فى نكد هذه الحادثة منذ أمس وأنه منذ رأى صورة زوجها شاهدا فيها وهو فى توتر لا يتوقف لأنه يعلم أن هذا بالنسبة إليها سينبش جروحا ..

ـــ أنت لا تعرفين كيف أعيش معه يا ماما ..

ـــ ...

ــ مالك مطرقة .. مهما تصورت فلن تعرفى ، لأنك حملت إلى والدى « الشرف المعروف » إننى يا ماما أشعر بالتدريج بشىء أخاف منه ..

ــ لا تخيفينى ..

ــ لا بد أن أقول ولو أن هذا لا ينفع .. أنا أشعر بالتدريج أن قداسة هذا الأمر تنحط فى عينى يوما بعد يوم بسبب زوجى هذا الذى يشرب من الجدول ويبدى قرفه ، فإما أن يشرب وإما أن يقرف .. وأنا اليوم أتمنى أن أكون مثل خطيبة الصياد يحملنى ليلة فى شبكة ثم أموت بعدها فقد جعلنى زوجى أشعر أن الدنيا ممكن ألا تتسع لاثنين .

ــ تعالى واتركيه .. آه .. لكن .. اصبرى حتى تخرج أختك من البيت فإن عريسها هنا باستمرار .. و .. وبعدها تخرج .. تعا ..

وضعت كفها على فم أمها حتى لا تكمل حديثها ثم علقت فى ذراعها حقيبة يدها السوداء ومضت ..

نقمتها على كلمات التهوين مثل نقمتها على كلمات الإهانة .. فماذا كان من الممكن أن تقول لها تلك الأم .. على أنها شعرت بعدها براحة من استسلم لجدران سجن ، ولفها من جديد شارع السكة الجديدة « بروائح السلع والذكريات .. وبينما هى فى طريقها إلى بيتها لمحت أمامها خيال « حسن شيحة » وخلفه امرأة ريفية سائرا بين الناس مشيته المألوفة السريعة .. كأنه يعرج برجليه معا .. يميل نحو اليمين ويميل نحو اليسار .. وقد حمل بضائع ملفوفة فى كل يد وحملت هى شيئا على رأسها .. وهمت « درية » أن تناديه .. لم تكن تدرى لماذا تريده ؟!. أسمار كل الناس لا تملأ فجوة قلبها العميقة .. دواؤها فى مأساة أعظم أو مسرة لا تدرى وصفها ..

وعرج « حسن شيحة » نحو حارة جانبية تتبعه المرأة فتبعته ببصرها .. هذا الذى لا تستطيع الحياة أن تأخذ منه شيئا .. بسمات السخرية تسرى عنه الهموم : « ليتني مثله » منزلته من عدم المبالاة يستطيع الضعيف أن يفعل معها كل شيء مع الناس ..

وتمنت أن تكون مثله .. أليس ذلك خيرا لها من « حلية » سرقوها منها وحاسبوها عليها ..

وتوارد إلى ذهنها وهى سائرة صورة أبو اليزيد السجان ذلك الذى ترامى إلى سمعها أنه يبيع الحرية للمساجين لحسابه الخاص .. حرية الممنوعات على حد تعبير السجون .. فتعجبت لعالمها : كأن جزءا واحدا من عالمنا يصنع بقية أجزائه الأخرى الحقيقى منها والوهمى .. فلو لم تكن درية فى مشكلتها هذه ما أحست بموقع السجن ولا بدكان الرفاء .. ولو أن عروسا سكنت شقتها بعد ، ما لفت نظرها السجن ولا ما حوله ..

وعندما يقترب شارعها الذى تسكنه من ميدان السجن يصبح قريبا من شريط السكة الحديد ومن الممكن أن تسمع هدير القطارات فى طريقها نحو الشمال أو الجنوب .. ومنذ حادثة حبيبة الصياد دخل القطار فى خيالاتها بشكل آخر .. وأصبحت تحس بوجوده أكثر من قبل على الرغم من أنه شيء مرتبط بأعمال زوجها ..

لو أن « سلامة » استطاع أن يتصور عالمها كما استطاعت هى أن تتصور عالمه .. مشاكل عويصة تحل بين كل اثنين إذا ما نجح كل منهما فى تصور عالم الآخر الخاص به .

إنها تعرف أن زوجها من النوع الذى يعتبر الرجولة منحة سماوية .. ففى

نظره « ما أعظم أن يكون المخلوق رجلا » وكان يقولها وهو يدفع بصدره إلى الأمام كمن يحاول أن يلفت الأنظار إلى وسام .. ثم أخذت هذه الفكرة فى ذهنه صورة « الحق الإلهى » لملوك القرون الغابرة .. فهو لرجولته من حقه أن يأكل وحده ويشرب وحده ويلبس وحده .. وربما يتلذذ وحده .. وهو بحكم مهنته قد مرن على قراءة الوجوه والصراحة التى تبلغ حد الوقاحة .. وفى ليالى الحرب فى ظلمة القطارات وهو شاب صغير شهد قصصا ونسج قصصا فى خطوط الريف والصحراء .. فضلا عن أزقة طنطا التى تراق على أرضها مياه الغسيل وتفتح أبواب بعضها فى الليل بنقرات متفق عليها تتغير كل مدة كأنها كلمات سر ..

شمت « درية » رائحة هذا العالم الخاص به لكنه هو لم يحاول أن يتشمم رائحة عالمها .. طالما هى ساقطة القيد فى دفتر الشرف المعروف .. ثم ..

ثم فطنت « درية » وهى فى الشارع إلى نفس العربة التى رآها « سلامة » عند الشروق أول أمس .. محملة بالبراميل تجرها بعنف بغلة عظيمة الكفل تابعة للبلدية وكانت فى هذه الآونة تجاه بيت أم « سمير » ..

شعرت فجأة أنها تريد أن تراها .. أن تراه .. أن ترى حتى والده والتمثال الرمادى الذى نحته أحد المساجين ووضع فى ركن الصالة يمثل طائرا يرفرف .. كأنه وعد بالحرية لنفس أهلكها العذاب ..

كان السلم صامتا .. وقع أقدامها عليه ظاهر الصدى .. وشبابيكه ذات الزجاج الملون عليها غبار بعض الفصول .. غير أن بهجة « السكن » واطمئنان « الكن » كانت منتشرة على الدرجات والبسطات الواسعة كرائحة حوائج أم ..

وعكست على رجليها وهى واقفة أمام الباب لتدق الجرس دائرة حمراء بعثرتها الشمس وهى تنعكس على احدى نوافذ السلم فنظرت إليها « درية » ثم دقت الجرس ..

رن الصوت بالداخل فأحست أن الصوت وحيد .. ثم ما لبثت أن أعادت الدقة فرن بنفس الطريقة .. زادت وحدانيتها من جديد فحولت بصرها عن الباب المرتفع الطول وأخذت تتنفس جو المكان .. هاون يدق فى أعلى طابق .. يبعث الجلبة النحاسية وحده أيضا فى هذا الجو المستتب .

وعندما بدأت تتحول لتنزل سمعت الباب يفتح .. ولدهشتها وجدت أمامها « سمير » .. وزاد انفراج الباب كأنه يأمرها بالدخول غير أنها لم تتحرك من مكانها أما هو فكان على وجهه عدم مبالاة من يحدث أحد الباعة الذين يدقون الأبواب ..

ـــ تفضلى ..

ـــ ماما موجودة ؟

ـــ وبابا .. والحمد الله ..

ابتسمت فى عناء وهى تعبر العتبة ومن خلال بسمتها رددت قائلة :

ـــ شكرا .. أنا أريد ماما ..

جلست فى الركن الأيمن الذى يلى الباب مباشرة حيث تسود ظلمة رقيقة كظلمة أركان الأضرحة .. ولم يجلس معها بل قال أيضا بعدم مبالاة :

ـــ دقيقة من فضلك ..

ودخل حيث كان يتناهى إلى سمعها نشيش وابور جاز فى الداخل ..

وكان على الكنبة التى جلست عليها صحف صباح اليوم والصور التى

شغلتها.. وفى الركن ذلك الطائر الذى تحته المسجون.. يرفرف.. وعلى الكنبة غطاء من الكريتون فيه رسوم بريشة « سيريالى » ..

مدت يدها بلا إرادة فتناولت الصحيفة التى تصف الجريمة وأخذت تقرأ .. ومن حين لحين تلقى نظرة على المنحنى الذى سيأتى منه أحد ما .. ونظرة أخرى على الطائر ونظرة ثالثة على الباب المفتوح ذى المصاريع العريضة الواقع أمام مدخل الشقة على خط مستقيم مع شباك مواجه رأت منه عينها نافدة غرفتها المغلقة .. نعم .. حيث رف الأصص والحبل المشدود .. وظهر الدكان حيث تتخذ القطة مرقدها فى الليل ..

شعرت بأن الوقت يستطيل .. شعرت أنه لا أحد فى الشقة حتى سمير هذا الذى فتح لها تركها وانصرف ـــ لكنها ما لبثت أن اندمجت فى القراءة وسألت نفسها : هل كون « سمير » فكرة معينة عن هذه الحادثة ؟ وأجابت : هذا لا شك فيه .. عندئذ تنهدت وودت لو أتاحت لها ظروف اليوم أن تتحدث معه فى هذا الموضوع ..

ثم ما لبثت أن رأته عائدا .. جدد تسريح شعره وارتدى بيجاما غير التى كانت عليه .. ثم قال وهو يجلس على مقربة منها :

ـــ حالا ..

هزت رأسها مستفهمة عن أمه فأجاب ضاحكا :

ـــ ربما تكون فى الحمام . وأبى نائم وهو يود أن يراك .

ثم أمسك بالصحيفة وقال دون أن يرفع بصره إليها :

ـــ الذين يقضون حياتهم فى القطارات يتاح لهم أن يروا أشياء غريبة . لقد رأيت صورة السيد « سلامة » (وتأوه) .. هذه الحادثة تعاودنى تفاصيلها

كلما وضعت رأسى على وسادة ..

بلغت ريقها :

ــ وأنا ..

ــ طبعا من أجل زوجك .. لقد اجتاز تجربة كريهة . وقد قالوا : إن الذى يقتل لا يستطيع أن يشعر بفظاعة القتل لكن شاهد العيان هو الذى يشعر بهذه الفظاعة ..

ــ صحيح .. آه .. لكن يخيل إلى أن الشاب سيبرئه القضاء ما دامت الفتاة عذراء لأن شبهة واحدة كما قال زوجى تبرىء ساحة المتهم .. « ثم همست لنفسها » هذا مخيف ..

ــ أووه .. هناك تفصيل جديد فى جريدة أخرى .. ألم تقرئيه ؟!..

ــ أين ؟!

فقدم إليها جريدة المساء السابق ودنا منها حتى دلها على الموضع .. وتركها تقرأ وعيناه تنتقل من صورة إلى صورة من صورتها إلى صورة المقتولة .. حتى كادت هى أن تسأل نفسها : « هل يجد بينى وبينها وجه شبه ؟ » ..

كانت الصحيفة تقول « إن الطبيب قد قرر أن فى يد الشاب اليمنى خلع فى مفصل الرسغ وخدوش فى الكف اليمنى للفتاة مما يرجح معه أنها تعلقت بيده بكل ثقلها وهى تسقط ثم حدثت محاولة لحملها على ترك يده نتج عنها الخلع فى مفصل الرسغ والخدوش فى كف الفتاة ..

وتنهدت « درية » وهى تضع الصحيفة جانبا ثم نسيت نفسها فى مجلسها .. نسيت أن تعاود السؤال عن الأم .. ومن خلال كفها التى وضعتها على فمها وهى تتنهد قالت لـ « سمير » :

ــ ما رأيك فى هذا كإنسان يدرس المجتمع ؟!

أغمض قليلا كأنه يوارى أسفه ثم وضع رجله على الأخرى وأخذ يهزها ثم نظر إليها قائلا :

ــ فى نيتى أن أعمل بحثا عن هذا الموضوع ..

ردت بلهفة :

ــ لتحل المشكلة ؟!

فقال كأنما يردها إلى الصواب :

ــ البحوث لا تحل المشاكل يا سيدتى .. فهى ليست أوامر تنفذ بقوة القانون .. لكن نتيجة أى بحث يحل مشكلة تطرح فى المجتمع مثل أى دواء جديد .. يحتاج إلى إعلان ووقت وقد يتحول من استعمله داعية له .. وبمرور الزمن يأخذ الدواء مكانته التى يكسبها غالبا من محاكاة الناس بعضهم لبعض .. فأنت تعلمين أننا مهما ترقينا نعيش فى « مجتمع القردة » ..

مالت ضحكتها إلى الصفاء فجرت فى وجهها نضرة طارئة ثم همست بصوت لا يكاد يسمع :

ــ إن زوجى له حق ..

رد مداعبا :

ــ فى كل شيء ما دمت فى صفه ..

ــ أقصد أنه محق فى الكلمة التى يرددها دائما ..

يقول الحمد لله الذى خلقنا رجالا ..

عقب « سمير » على ردها بالضحك لكن ما لبث أن أحس بما يمكن أن يسمى غيرة رجل من رجل ، فقد ألقت هذه الكلمات على نفسه وهما بأنهما

أسعد زوجين .. وكان رد الفعل لهذا الشعور أن قال لها :

ـــ على كل حال .. يخيل إلى أننى ما كنت أعيش بإحساس متغير عن إحساسي بالوجود اليوم .. لو .. هاهاها .. لو أن أمى ولدتنى « سميرة » ..

ـــ أ ى ى ه ؟.. كأنك لا ترهب مشاكل الفتيات ؟!

ولوحت بالصحيفة .. فعض شفته وهز رأسه وهمس :

ـــ ذلك موضوع جدير بالتفكير .. لكن .. ما لنا لا نفكر فيه نحن الرجال ..

« وخفض صوته كأنه يناجى نفسه » المشكلة منا وإلينا .. لو أن زوجة الصياد هذه زفت إلى .. آه .. ماذا أريد أن أقول ؟!

وخبط كفا بكف كأنما يعلن لنفسه توقف أفكاره .. على أنها كانت شديدة التعطش إلى رأيه فقالت على استحياء :

ـــ سمعت لزوجى تعليقا على هذا الأمر .. قال إن أمنا حواء لم تخلق بهذا الشيء لأنه لم يكن له ضرورة وقتها .. فهل هذا صحيح ؟!

بدت الدهشة على وجه الشاب و لم يحر جوابا ثم ما لبث أن قال :

ـــ يجوز أن يكون هذا افتراضا ويجوز أن يكون نكتة .. شيء لا يمكن إثباته ولا نفيه ، وإذا شئت أن أتكلم معك مثل طبيب يمكن أن أقول لك أشياء كثيرة ..

غمرها التلهف .. وعلقت عيناها بشفتيه الشاحبتين التى بدت شقوقهما وبالخليجين الواضحين حول ناصيته ونسيت أنها فى مكان غريب .. وأخذ هو يقول :

ـــ هناك حوادث من الممكن أن تعتبر من أخطار المهن .. فالذى يصيب

فتاة السرك بسبب الوثبات العنيفة لا يمكن أن تحاسب عليه وهو فى رأيى مثل الذى يصيب بعض الريفيات من التعرض ــ بحكم العمل ــ لخطر يمكن أن يعتبر فى الموضع الثانى بعد خطر المهنة ..

هزت رأسها مستزيدة فاستطرد :

ــ قال لنا أحد مدرسينا أن الريفية التى تنام فى خيام العمل مغتربة فى الشتاء فى الخلاء صيفا بعد مشقة اليوم بين العمال يمكن أن يعتبر ما يصيبها من أخطار المهنة .. إذ كيف يمكن التوفيق بين « الحراسة والنوم » على رأى هذا المدرس .. فالمفروض أن تنظر للظروف قبل أن تنظر للحوادث ..

ــ معقول معقول ..

حملق فيها واستطرد :

ــ وهو يقول أيضا : وما الرأى إذا جندنا كتيبة من الفتيات للدفاع ، ثم كانت ظروف العمل الجسمانى لهن داخلة ضمن أخطار المهنة ؟ ومع ذلك فقد حكى لنا افتراضا آخر وهو لو أن شابا نشر فى إعلانات الزواج يطلب عروسا واشترط أن تكون مالكة لهذا الشىء فماذا يحدث ؟!

مالت على أظافرها قضما مثل تلميذ مرتبك حديث السن ، وفاحت رائحة عطر من حقيبة يدها وهى تفتحها لتبحث عن شىء لا تعلمه ، ثم أقفلتها وألقت نظرة على وجهه المشغول وهو يقول :

ــ الذى يحدث أن كل من يقرأن هذا الإعلان سيترددن ألف مرة فى الاستجابة إليه .. فالفتيات اللاتى يملكن سيسخرن من سخافة مطلبه معتبرات أن هذا طلب شائن لكل عذراء تتقدم معلنة له انطباق الشرط عليها ، بل ربما أثار شكه هو شخصيا .. أما اللائى لا يملكن فسيكن قسمين ؛ قسم يزور

ويتقدم ، وقسم يخاف ولا يتقدم .. أما موقفه هو فسيكون على كل حال موقف التحفظ من الجميع .. فلم كل هذا ؟!

فهمست :

ــ عذاب ..

ــ للطرفين ..

ــ أين ماما ؟!

ــ ألا تسمعين أزيز وابور الجاز ؟!

ــ إن صورة زوجة الصياد هذه حرمتنى النوم منذ .. آه .. يجب أن نغير مجرى الحديث .. « وتلفتت حولها » هذا الطائر يعجبنى ..

قال مداعبا :

ــ وأنا أيضا .. لأنه رمز للمعارك بينى وبين أبى باستمرار ..

ــ لا ترفع صوتك ..

ــ إنه لا يسمعنى .. لا نائما ولا غير نايم .. كلامى لا يصل إلى أذنه ولا عقله ، وكان سيحطم تمثال هذا الطائر على رأسى ذات ليلة ونحن نتناقش .. ما أفظع أن يعيش اثنان مختلفان تحت سقف واحد .. « وغمغم ضاحكا » أحمد الله على أننا لسنا زوجين .. أما أمى فإنها تخالفه وتحبه ..

ــ وهل هذا ممكن ؟!

ــ هكذا تسير حياة كثير من الناس .. صلح ينسى الخصام وخصام ينسى الصلح من أجل أطراف أخرى هم الأبناء وتمشى الحيات تعرج .. تاتاتاتا .. والسلحفاة تصل ..

ساد صمت .. وانسحبت دائرة النور الحمراء المسكوبة على البسطة أمام

الباب وشعت النافذة بدلها دائرة بنفسجية .. وهبت نسمة نفذت من تحت الباب .. وحركت فى الخارج مناديل « درية » على الحبل المشدود .. منديلين لها ومنديلين لزوجها رأت عينها وعينه عبث الهواء بها عبر الباب والنافذة .. وشعرت « درية » كأنها تريد أن تنام .. والرسوم الغامضة فى غطاء الكنبة مثل عيون كبيرة بلا أهداب مقفلة تماما .. وعطرها يطفو على الموقف .. ولم تدر لماذا غابت عنها أوجاع نفسها .. وكادت تنكر أن وراء هذه النافذة لاقت ليالى من العذاب .. ثم عادت تتنفس بصوت مسموع كأنه سلسلة من تنهدات مكتومة .. ثم قالت :

ـــ أنت تبدو أكبر من سنك اليوم ..

هتف مأخوذا :

ـــ أنا ؟

ـــ نعم .. عندما تكون جادا تبدو كذلك .. عندما تتكلم عن أشياء غير التى تكلمت عنها فى المرة السابقة ..

ـــ عندما أشعر بأننى قادر على عمل شىء مفيد تنتفخ شخصيتى ككل إنسان حتى أبدو كبير السن .. وإذا حدث العكس لهوت مثل الأطفال ..

ـــ معقول .. لكن .. آ .. أين ماما ؟!

ـــ ألا تسمعين صوت وابور الجاز ؟! ولا أزال حتى الآن غريبا عن نفسى .. وعندما أعامل الناس أكتشف عاما بعد عام أننى أعيش « على حلقات » وفى الحلقة الجديدة أتنكر لنفسى فى الحلقة التى قبلها ..

ـــ هل أنت مشغول بالبحث عن شىء ؟

ـــ أريد أن أعيش فى الريف بعد تخرجى ..



تأوهت .. وتمايلت شجرة قريبة ..

ـــ وتتزوج من هناك ؟

جاء هذا سؤالا مفاجئا لا داعى له .. وأحست هى بذلك لكنه كان تعبيرا غامضا عن رغبة شخصية .. وحتى هذه الرغبة لم تكن محددة المعالم ..

ـــ لا .. بل تتبعنى مختارة فتاة من المدينة .. تحبنى .

ـــ لكن قل لى : أين ماما ؟

قال بفتور مثل النوم :

ـــ ألا تسمعين هدير الوابور ؟!

ـــ أى وابور تعنى ؟!

أرهفت سمعها ، وكان هناك على خط السكة الحديدية الواقع نحو الغرب قطار سريع يهز كل ما حوله .. تناهى صوته إليهما .. كلمها فى شرود وردت فى شرود أكثر .. ونظرا معا إلى الطائر المتطلع إلى الطيران .. يرفرف بأجنحة من حجارة عليها صورة الريش ، وكان هدير القطار يملأ سمعها .. فذكرت عالمها الأول .. الذى يجب أن تعود إليه .. فقامت كأنما ناداها .. ولم يستبقها « سمير » فهبطت السلم بعدما صافحها وكاد لا يترك كفها من كفه ..

وعندما وصلت إلى بيتها ذهبت توا إلى النافذة المطلة على الممر وفتحتها فإذا بها ترى من خلالها أمه ووالده يدخلان بيتهما عائدين من الخارج ..

تأوهت .. وتمايلت شجرة قريبة من سطح الدكان بهزة من هواء عابر ..

٨

من خلال الصمت المطبق الذى خيم على جلستهما انبرى صوتها مليئا بالصدق والأسى تقول :

ــ ليتنى كنت مثلها ..

أرهف زوجها سمعه ووضع كفه على أذنه ومال نحوها عجبا ..

ــ آه .. ماذا قلت ؟!

ــ ألم تسمع ؟!

ــ تتمنين أن تكونى مثلها ؟!.. « وصمت وعاد يتكلم بحماسة أكثر » لك حق .. لأنك أسوأ منها بكثير فقد ثبت أنها ..

ــ لك حق .. لقد أثبت الموت براءتها وفرقها عمن لا تحبه بعد أن عاشت ما كتب لها من العمر مع من تحبه .. « وتأوهت » أنت ترى أن الحياة أعطتها .. وأن الموت أيضا أعطاها ..

تدفق ضحكه كأنه خرج من فتحة صمام :

ــ أما أنت فلن تأخذى شيئا من الموت ولا الحياة ..

نظرت إليه وخرجت وعادت .. كانا فى غرفة النوم والوقت نهار .. ذهبت إلى الحجرة الأخرى كأنما لتشم من نافذتها المطلة على نافذة « سمير » رائحة

فكرة تشجع .. رائحة وهم سعيد أو حقيقة ليست حلوة لكنها فقط خالية من المرارة ..

وكان على حبلها فوق الأصص جورب لها يتدلى فى استرخاء مطواع .. ولم تلبث سوى دقيقتين ثم عادت إليه كأنما لتنهى إليه خبرا .. دخلت فألفته واضعا رجلا على رجل راقدا على ظهره يهز إحداهما فى شبه عصبية .. فقالت :

ـــ من الذى قال لك إننى لن آخذ شيئا لا من الحياة ولا من الموت ؟!

رد باستهزاء وبعد نظرة فحص طويلة :

ـــ هو ..

ـــ من ؟!

ـــ الثعبان .. الذى دخل .. من بين .. قضبان النافذة .. كما قلت لى يا مدام « درية » ..

كادت تلهث لاضطراب أنفاسها لكنها تماسكت وقالت بقوة :

ـــ أنا الآن غير مضطرة إلى أن تصدقنى لكنك أنت الآن هو المضطر إلى تصديقى ..

بدأ التوجس على وجهه .. واعتدل فى فراشه جالسا وكانت هى واقفة وكلها تنمر .. فى عينيها وعلى شفتها ورعدة أطرافها ما يدل على اتخاذ قرار .. وتقدم نحو حافة الفراش حتى أدلى رجليه إلى الأرض وسأل :

ـــ ماذا قلت ؟!

ـــ كنت مضطرة إلى أن تصدقنى من قبل لأرتاح أنا . أما الآن فأنت مضطر إلى أن تصدقنى لترتاح أنت ..

ـــ مناورة ؟!

— ...

لكنه رد بلين جديد عليها :

— أنت معذورة .. فقد ألقت حادثة زوجة الصياد ظلا على نفسيتك .. لكن يجب أن تعلمى أن الميول المخيفة ليست من طبعى .. لقد أصبحت أنت كثيرة المخاوف ..

— أنت لا تعرف ما تريد أن تقول .. ولن تستطيع فهم قصدى ..

سجادة ذات أزهار نارية أطرق نحوها ثم رفع رأسه وبدت فى عينيه مخايل الفهم ثم سأل :

— قولى أنت ..

— حاضر .. سأقول .. هل تذكر يوم عدت من العمل فى أسبوعنا الأول ثم أخبرتنى أن امرأة ولدت فى القطار وأن الحل المؤقت لمشكلتنا هو أن نعيش هكذا .. هكذا ..

— مفهوم .. « ثم صرخ » وبعد ذلك ؟!

— كنت تتمتع عن طريق الألم لى واللذة لك وحرمانى من الولد .. لكن ..

صرخ :

— لكن ماذا يا فاجرة .. لم يبق إلا أن تدعى أنك أم .

همست كأنها تخاطب من لا تعرفه :

— ليس هذا حقك إنه حقى .. لا تعد ثانيا إلى التكلم فيه ..

— ماذا تريدين أن تقولى ؟ أريد أن أفهم ..

قالت بنفس إهمالها الأول :

— فرصة عظيمة للمرأة ضد من يكرهها أن تعذبه بمن يحبه .. لا تزعق فهذا

مجرد فرض ..

ــ لا .. يجب أن تخرجى من هذا البيت ولو أن هذا جاء متأخرا ..

لم يزايلها إهمالها كأنها تساوم على سلعة غير راغبة فيها .. تقلب الموقف وتتكلم بما يشى بعدم الرغبة .. أما هو فكان يطحن أضراسه ويقبض أصابعه كمن يريد أن يفتك ورغم هذا كله جعلها تقول :

ــ كل الذى كنت أريده من هنا أخذته وانتهى الأمر ..

ــ ليتنى استطيع أن أفهم ..

ــ حاولت تفهيمك فلم تقبل فماذا أصنع لك ؟ ثلاثة شهور أو أكثر .. لذة لك وألم لى وهما معا لذة لك .. ومضى الوقت .. فشعرت اليوم أننى أخذت من هذا البيت كل ما أحتاجه .. الخوف والسهر والمهانة علمتنى .. فلم يبق هنا ما أرغب فيه .. أشكرك على أن منحتنى فرصة للكلام .. وحين أخرج من هذا البيت لن أترك فيه إلا الأشياء غير المهمة .

ــ وما هى ؟!

ــ أنت .. والعفش ..

ففغر فمه وقال مدهوشا :

ــ إلى هذا الحد . كل هذا فيك . « وخبط كفا بكف » لماذا إذن كانت الطيبة تبدو عليك ؟! .. هل أنت أم كما تقولين أنا فى الحقيقة كنت أعذب الرجل الذى .. آه .. أنت تفهمين .. لكن .. تعذيبى فيه كان واقعا على رأسك .. وأنت إذا كنت صادقة ستفعلين نفس الشىء .. ستعذبين إنسانا عن طريق إنسان .. آه ..

ووضع كفيه على عينيه يوارى دموعا .. وشمت هى رائحة الأسى ولأول

مرة يبدو مخذولا .. وأسبلت أجفانها وتخيلته كيف كان فى ليالى التنكيل .. ثم تصورت المستقبل لكنها على كل حال أحست براحة المغلوب حين يشعر بأن مأساته دخلت فى المحيط العادى للمآسى ..

* * *

من إحدى العمارات التى تبنى الآن حديثا على جزء من الخراب الواقع خلف مسكن أبيها كانت تتناهى إليها أصوات غناء مفرد تردد المجموعة عقب كل مقطوعة منه تلك اللازمة القديمة التى أرقتها : « ولدى .. والاداى .. ولدى » ..

وعاد إليها الماضى بكل تفاصيله حين دخلت الحمام هنا قميصها معلق تفوح منه رائحتها وصدى الأغنية والحوادث والذكرى تملأ رأسها ..

أمها قالت لها حين رأتها داخلة ومعها بعض حاجاتها :

— لماذا جئت ؟

و لم تدر الأم أن « درية » أصبحت فى خوف شديد على نفسها ..

— إنه يا ماما لا تناسبه فتاة مثلى .. تناسبه فتاة تعمل حوله سورا من المشاكل لتحبسه ثم تفعل ما تريد « واستطردت بمذلة » والأسباب التى أقنعتك بالبقاء فى هذا البيت فى قوة الأسباب التى أقنعتنى بترك بيته وأكثر ..

هزت الأم رأسها وبدا القلق فى عينيها لكن « درية » سارعت فأجابت عن كثير من الأسئلة التى تدور برأسها :

— إننى يا ماما .. أم ..

خبطت على صدرها بفرح حزين فقد كان ذلك يعنى أن الماضى طمست حروفه وأن المشكلة الآن أصبحت مجرد اختلاف بين زوجين ..

وعادت الأم ففكرت فى الموضوع مليا وما لبثت أن هتفت تسأل :

ــ صحيح أنك أم ؟ أنا غير مصدقة ما سمعت ؟

فنظرت إلى أمها طويلا من خلال أهدابها وقد ضيقت عينيها وفيهما دموع وقالت لها وهى تشرق بريقها :

ــ وهو أيضا لم يصدق .. مصيبة ؟!

هزت الأم رأسها فى صمت فاستطردت الفتاة :

ــ وفى أول حياتى معه .. لم يصدق هو ولم تصدقى أنت .. إذن ماذا يا ماما ؟!..

ــ لا شيء .. كل هذا من خوفى عليك ..

ومرت بكفها على بطن بنتها ..

فتنهدت الفتاة .. كأنما أدركت أن الخوف وحده ليس سبيل النجاة .. فماذا عملت هذه الأم بخوفها .. أما « درية » فقد أصبحت اليوم تمقت الخوف ..

* * *

أثاثها مكوم الآن فى إحدى الحجرات الخالية فى شقة الحاج يحيى فليس من اللائق ولا الفأل الحسن أن يدخل بيت والدها أثاث بنته الأولى على أثاث بنته الثانية .. ولم يعذب الفتاة هذا بقدر ما عذبها وجه السيدة « زينات » يوم جاءت فوجدتها فى البيت ، وأنهت إليها الفتاة بطريقة نسوية مختصرة توهم بأشياء لا تحصى بأن الحياة مع مثل هذا الرجل مستحيلة . ثم بكت « درية » لأنها شعرت بثقل ما حملت .. ثم انتهزت فرصة دموعها وقالت للسيدة « زينات » كلمات كانت محتاجة لبطانة من الدموع لكى تصل إلى أى

قلب مقفل :

ـــ لو أننى غير شقية إلى هذا الحد .. لتركت بيته دون أن ..

وفهمت السيدة أنها حامل .. فبدا الغم على وجهها ثم عادت فقالت كأنها ذكرت شيئا :

ـــ لكن يا بنتى .. على كل حال .. ربما كان هذا سببا فى عودة الأمور إلى ما كانت عليه بينك وبينه ..

هزت الفتاة رأسها كمن تنفى فكرة .. أو كمن تتألم .. اهتزاز صامت لا يوحى إلا بالأسى ..

وبعد الشعور بالغربة المألوفة عادت إليها مألوفة من جديد ـــ كأنها لم تفارق المكان ـــ أصوات الباعة فى مواعيدهم تلك التى تؤلف فى نفسها معالم شخصية للحى .. كانت تناغيها كل صباح حين تستيقظ وتذكر بشىء من الفزع أنها لم تزف بعد لزوجها .. ثم تتذكر ما قد حدث لها خلال الأشهر الماضية وتحسب العمر .. فتعجب كيف تستطيع بضعة أشهر أن تضيف لأعوامه وذكرياته ومدى بعد أفقه عن يوم ميلادها ـــ كل هذه الأبعاد ..

* * *

النافذة على الممر لم تعد تفتح .. والقطة لم تعد تجد من يطعمها .. لكن الرفاء حتى الآن يرفى خروقا لا تحصى .. والأصص جف فيها النعناع والريحان .. والحبل المشدود فوق رف الأصص عليه منديل غسلته يد رجل غير نقى البياض .. ومشابك غسيل من الخشب تعض الحبل الخالى وقفت عليه كأنها جراد .. ولم تعد بغلة البلدية تمر من هذا الشارع بعربة البرابخ .. فلعل العمل قد انتهى هنا وبدأ فى مكان آخر .. غير أن السجن موجود .. أمامه

الساحة ذات البلاط الحجرى وفيه الصفافير والديدبانات .. تذهب الأشخاص وتبقى الأماكن .. سنة الوجود ..

جاء « حسن شيحة » ودق الباب فلم يرد أحد .. لكنه وقف على بسطة السلم يتلكأ حتى إذا ما تعب من الوقوف جلس على الدرجة الأولى للسلم أمام الباب .. عندئذ رآه طفل كان نازلا يقفز فلما سأله عمن هنا قال له الطفل :

ـ تعيش أنت .. عزلت ..

وتواثب نازلا يصفر .. فتبعه الرجل بعينه السليمة ودق قلبه .. وأخرج من جيبه منديله ففاحت منه رائحة عطر ظنه عطرها .. وبقى فى مكانه برهة يعيش على الصمت والرائحة لكنه أدرك أن خطرا ما قد حل بالسيدة فنزل حيث ذهب إلى بيت السيد عبد المتعال ، ذلك الرجل الذى يصلى ويفسق ويقول إن الميزان قد خلق بكفتين واحدة للحسنات وواحدة للسيئات ..

ولم يدر « حسن شيحة » لماذا شعر بالحزن .. كأنما أصيب لأول مرة فى حياته بخيبة أمل شعر معها بالكمد .. كأنما خطف منه شيء جميل كان ملكه أو على الأقل كان يحلم بامتلاكه ..

لم يلق نظرة ساجية من عين حسناء .. ولا الحركة التى توحى ببدء رفع الكلفة يوم كان فى شقتها آخر مرة .. وجلس « عبد المتعال » يثرثر وهو فى معزل عنه يفكر فيما عسى أن يصنع لكى يراها ..

لكنه ما لبث أن سمع الباب يطرق .. ودخلت الخادمة العجوز التى أكلت وأكلت فأخبرت « حسن شيحة » أن طالبا على الباب يسأل عنه .. ولما ذكرت اسمه وعرف أنه ابن أحد ملاك الأراضى فى إحدى القرى المجاورة .. شاب سمين يلهث من الطعام والفوضى .. ويسكن مع أخيه الأصغر فى شقة

فى الحى الجديد .. وكان « حسن شيحة » يحمل إليه المؤونة والنقود كل أسبوع أو أكثر ويجلب له خدما لا يصبرون على أذاه ويهربون ..

وأستأذن « حسن شيحة » من السيد « عبد المتعال » وخرج للطالب الذى بدت عليه أمارات الربكة .. لكنه سار معه إلى حيث يمكن أن يخلصه كما خلص ناسا آخرين من ثمرات ورطات الحب ..

* * *

أما السيدة أم « سمير » فقد كانت تحس بالأسى والدهشة نحو ذلك الحادث المفاجئ الذى وقع لهذه الفتاة الطيبة .. وبدأت إشاعات فاترة تتناهى إلى سمعها عن أصل قصتها لكن قلبها رفضها .. وفكرت فى أن تذهب لتسأل عنها لكنها أرجأت التنفيذ لوقت آخر .. أما زوجها فقد بدا لأول مرة فى حياته ظاهر الحزن على امرأة أصابها مكروه فهو كرجل خلق هكذا كان يقول لزوجته دائما : « ما دام النساء أصلا للمصائب فهى إذن أحق بها وأهل لها » وتضربه زوجته بكفها الصغيرة على صدره اللابس قميصا من الشعر فيتأوه ويضحك ..

لكنه — مع عجب زوجته — أبدى حزنا على هذه الزوجة وتنبأ بقرب عودتها إلى بيتها من جديد .. وقهقه مكملا : « عندنا مساجين يبكون على السجن يوم فراقه ويحدث أن يعودوا إليه .. فما بالك بالبيوت ؟.. لعن الله الشيطان .. يخرب هناك ويعمر هناك .. البيوت والسجون .. آه آه .. أنا لا أطيق أن أرى بيتا خاليا من المرأة .. إنه يصبح زنزانة بلا نور .. هداك الله يا بنتى فى بيت زوجك » ..

وأخذت تسمع إليه وهى تبتسم .. لكنها جعلت تفكر مقدما فى المشاعر

التى يكنها لها « سمير » .. ماذا عسى أن يقول عندما يسمع ذلك الخبر ؟!

وأحست بخوف وتوجس .. مجرد شعور أموى نسوى غامض من علاقة لم تقم لها دعائم بعد بين شاب وفتاة .. قوامها شعاع مضىء من نظرات العيون فحسب .. وربما خفقة بأهداب ..

وتذكرت الأم ذلك المنظر الذى حدث يوم كانت تخيط له البيجاما ذات الخطوط الزرقاء ..

ثم سخرت من نفسها : « لماذا أفكر فى هذا كله ؟! » وانصرفت إلى مشاغل أهم ..

أما « سلامة » فقد بدأ ينام فى ظلام بارد مرعب مثل الفراغ الذى رأى زوجة الصياد تهوى فيه .. وعندما يعود من عمله أو من سهره ويفتح مسكنه ويدخل تعاوده همسات الاسترضاء وبكاء الذل .. وفى الحمام — على الخصوص — كان يشم رائحة « درية » حتى تخيل أن المكان لا يحتفظ بها فقط بل إنه أيضا مصدر لهذه الرائحة .. فإذا ما أراق على بلاطه الماء هبت رائحة « درية » كرائحة الحديقة بعد ماء الرى أو قطرات المطر ..

وكثيرا ما حاور نفسه سائلا إياها : « هل يستطيع أن ينكر أن من فى بطنها ابنه ؟! وإذا أنكر فبماذا سيحتج ؟!.. وأن زوجها الثانى لن يرى إلا محاسنها .. وأنه وإن كان شاكا فى « أمومتها » فإنه عرض الآن للخطر أماكن الحساسية فى سيرته كرجل ..

وتذكر أنه جعل من زوجة الصياد شهيدة وهو يحدث « درية » عنها لكن لا ليخفف ثقل البلوى على زوجته بمعنى أن كثيرا من الفتيات يظلمن وقد تكون « درية » واحدة منهن — بل جعلها شهيدة لأن كثيرا من الطيبات

يذهبن ضحايا الرذلات فزوجة الصياد صحية لأمثال « درية » ولذلك اختلط الأمر على زوجها الثانى فأسلمها ليد القاتل .

وأخذ يتصور أين سيكون هو فى الذكريات الجديدة لها إذا ما تزوجت وأن ليالى البؤس التى صنعها ستكون مادة طبيعية تنسج هى منها ليالى الأنس للرجل الجديد .. لأنها بحكم ما ذاقت ستقنع منه بأى غذاء عاطفى حتى ولو كان قليلا .. والضمادة لجرح القلب غالية وعندما تحصل عليها « درية » ستكون كل كلمة طيبة رصيدا سعيدا فى حياتها الجديدة كما ستكون هذه الكلمة نفسها ثقلا عظيم الكآبة تلقى به على كوم ماضيها معه ..

ومن طبيعة الأخطاء والجرائم ألا يفحصها أصحابها جيدا إلا بعد أن تثور خوافيها .. وفى هذه الأرض السبخة تنبت أشواك تأنيب الضمير .. وهكذا عاش « سلامة » .. يضرب فى أرجاء هذه المتاهة ويراها فى كل مكان ويشم رائحتها .. كان موقنا أنه لا سبيل إلى رجعة ما فات .. فقد رآها تحرق كل سفنها .. وربما كان مبالغا فى بعض إحساساته .. لكن الموقف كان قد تحول بالنسبة للفتاة إلى حالة من احتقار الذات ونداء مستمر لتخليص نفسها من نفسها .. خصوصا بعد ما كانت تسترد جسمها من ذراعيه أو كان هو يلقيها بعيدا عنه ، فأحست بوضوح أن هذا الكيان المادى لم يخلق إلا للتعبير عن أشياء ليس هذا منطوقها .. وأن كل ما حدث لها خلال هذه الأشهر شىء يجب التطهر منه .. ففارقته ..

وشعرت أن « سمير » عندما حدثها عن « أخطار العمل » وأن شيئا من هذا القبيل يمكن أن ينسب لفتاة ريفية نسى أن يقول لها إن كنوز المرأة المادى منها والمعنوى توزع حراسته على سنوات العمر ، فعليها أن تحرس الكنوز المادية

وهى حديثة السن أو طائشة أو نصف عاقلة وعليها أن تحرس الكنوز المعنوية وهى كبيرة وعاقلة ..

أحست درية وهى تعانى أرقا فى هذه الليلة فى بيت أبيها أن على الفتاة الطائشة أن تحرس جمالها المتفتح ، وأن على العجوز ذات الرزانة والحكمة والحافظة لكل ما قاله الأولون — عليها .. ألا تحرس شيئا ..

ثم فكرت فى نظرات الغدر التى كانت تراها فى عينيه بغتة حين تفاجئه بنظرة ، خصوصا بعد مقتل زوجة الصياد ، .. وتذكرت تلميحا حين اقترح عليها فيه أن يسافرا مرة إلى الصعيد فوجف قلبها وسألته : « هل المقصود من هذا زيارة فندق الذكريات يا « سلامة » .. حيث قضينا جزءا من شهر العسل ؟! » ..

كانت مطرقة خائفة جافة الحلق تصنع من قشور البرتقال بالسكين عرائس كأنها .. لطفل .. وعندئذ تنحنح .. وارتبك .. وأخذ السكين من يدها فرمى بها بعيدا وهو يقول : « ماذا تصنعين ؟! » وفهم أن زوجته تريد أن تذكره بالليالى التى قضياها معا فى الفندق .. وبرائحة الطوب والأسمنت والدخان والشاى المغلى الذى فاح من العمارة الجديدة ..

لكنها كانت تخاف أن يعبر بها من عربه إلى عربه كما حدث لزوجة الصياد ..

ثم بدت لها ضرورة تخليص نفسها من نفسها .. كما أن أسلوب الحياة لا يمكن أن يسير هكذا .. وعندما نشعر بأن المسكنة ليست ضرورة وأن الحرية هى الطبيعة الأولى يلوح لنا فجأة طريق غير الذى استتبت عليه أقدامنا .. ولذلك فإن « درية » شاركت فى إشعال نار الحرب ضد نفسها ليقينها أن خصمها يرتب للحرب ثم ليقينها مرة أخرى أن مفاجأته بخبر « الحمل »

ستجعله يترنح ..

ذكرت موقفه عندما أفضت إليه بذلك فتبسمت فى فراشها وشعرت ببرد طارىء أراح صدرها المحزون .. ثم تنهدت وهى تتخيل عدد المخادع فى المدينة وعدد الأزواج الذين يأوون إليها .. ثم تصورت أنها تملك بقوة خارقة لم يصل إليها البحث بعد أن فى استطاعتها أن تسمع مناغاة السعادة فى كل مخدع أو أنات الشقاء فخيل إليها من جديد .. أنه لا سعادة وراء باب مقفل ..

وجاءت إلى ذهنها فكرة غريبة .. أن تتقدم إلى الحاج يحيى فتخطبه لنفسها : « أيها الرجل الطيب .. أنا سأفعل معك شيئا لم تفعله فتاة .. سأتقدم لخطبتك لأسباب منها أننى أحبك وأنك تحبنى وأنك لم تنجب .. وأننى قادرة على ذلك ما دام السر فى أنك لم تنجب غير معروف حتى اليوم .. سأهبك إخلاصى نظير الأمن الذى يشع من جبينك .. وقبلاتى ثمن عطفك الدائم على صبية وعندما تحتاج للخدمة سأكون ممرضة شابة حفظت لك ذكريات حنان قديم .. وسأحمل عنك هم الأطفال .. وعندما تعجز عن العمل سأقوم به وسأطعم الأسرة .. بلا منّ ولا أذى .. أثاثى مخزون فى بيتك فأعد النور لحجرة العروس .. إن الطمأنينة التى عشقتها إلى حد الهوس أراها عليك وعلى « حسن شيحة » غير أن طمأنينة عدم المبالاة شىء آخر غير طمأنينتك يا صديقى أبى .. آه أنا .. أنا .. أريد أن .. أنا ام » ..

ونامت فعلا .. كأنما على أغنية غنتها لنفسها .. كأنما فى أرجوحة طفل رقدت فيها وهزتها فى وقت واحد ..

وفى الصباح لبست ملابسها وخرجت .. وكان أبوها قد ذهب إلى الدكان بعد أن ملأ البيت بالشكوى من مرض السكر وورم فى قدميه جعل الوقوف

عملا قاسيا .. ولما سألتها أمها إلى أين ؟ قالت لها : لن أغيب .. هل تخافين على الآن يا ماما ؟!

مرت على الحاج « يحيى » فجلست عنده وقتا ما وطلب لها شايا بالنعناع من المقهى المقابل فتذكرت الأصص التى تركتها فى شقتها .. على الرف هناك فوق مرقد القطة وتجاه شباك « سمير » : « لا بد أنها جفت » ..

وقال لها الرجل : اخزى الشيطان وعودى لزوجك يا « درية » ..

فردت ضاحكة وهى تأتى على الثمالة الباقية فى الكوب :

ـــ إن أخزيت الشيطان حقيقة عشت بعيدة عنه طول عمرى .. سواء أكان العمر يوما أو كان مائة عام ..

حملق فيها وهمهم بما لم تسمعه .. فقد أدار الأمور على كل وجه ممكن .. ثم هز رأسه فى يقين قائلا :

ـــ أنت أدرى .. لكل سره ..

وعند الظهر عادت إلى أمها تنبئها بأنها ستعمل من غد فى محل للتطريز وكانت بادية الإنهاك تمسح وجهها بكفيها فيضطرب باللون الخمرى على الرغم مما بها .. أما الأم فقد كان عليها أن تدع الأمور تجرى فى سلام فليس هذا وقت الضجيج ، لأن الأب مريض والبنت الثانية فى طريقها إلى الخروج ..

* * *

فى يوم الخميس التالى لخروجها من بيت زوجها كان « سمير » فى طنطا .. لم يكن يدرى بالطبع ما حدث لها .. ولم تشأ أمه أن تسوق الخبر إليه بلا مناسبة ولم ير مناسبا أن يسأل أمه عنها ..

كأنما لذ للأم أن تشهد التساؤل على وجه ابنها وتقيس درجة قلقه كما تقيس



.. أعد النور إلى حجرة العروس ..

حرارة الجو .. رأته أول الأمر تلفتا ثم نظرة من الشباك ثم قلقا ثم تغير الموقف .. عندما رأى المشابك واقفة على الحبل الخالى من الغسيل والشيش مقفل والريحان ملىء بالأعواد الجافة أحس أن وراء هذه النافذة شرا ..

وجلس فى الركن يفكر هناك حيث تشيع رطوبة وظلمة مثل جو الأضرحة ويقف طائر رفع جناحيه الحجريين متطلعا للنهوض .. وحضرته صورة زوجة الصياد والنقاش الذى جرى حولها بينه وبين « درية » والضحكات والتنهد .. وفى المساء لم ير نورا خلف نافذتها .. وكانت الشجرة الواقعة على مقربة من الممر تترنح مع نسيم الليل وتلقى ظلها على ظهر الدكان لقربها من مصباح الشارع والحبل يتأرجح كوتر بلا نغم .. وكأن كل شىء يتحدث عنها فى صمت ..

وعندما نكتشف فجأة أهمية أى شىء كنا نعتبره عاديا تجرى الغصة إلى قلوبنا ، ولذلك .. وعندما شعر « سمير » بذلك .. أخذ يسأل نفسه : لماذا ؟!

وسمع قعقعة جرس أبيه وساد البيت روح من الاهتمام والحركة حتى ولو لم يكن هناك حركة . وخلع الأب ملابسه الرسمية وارتدى جلبابه الواسع الأكمام الذى يصر على استعماله فى المدينة .. ثم جلسوا إلى العشاء ..

وكان حديث الأب حول قطعة من الأرض سيشتريها وكان مهتما بالأمر وهو يرتب خطوات الشراء كقائد رسم معركة .. والأم تستمع وهى تعلق .. أما « سمير » فقد كان يعلم من أين تأتى هذه النقود .. ثمن للحظات من الحرية يبيعها للمسجونين خلسة ولحسابه .. ولذلك شعر بالضيق فعمد إلى تحويل مجرى الحديث بطريقة قد تعجب الأب وقد سرى عن الابن فقال لأبيه : ماذا تظن يا بابا . بالنسبة للحكم على الشاب قاتل امرأة الصياد ؟!

انسحب الأب من أفكاره ثم تأوه .. وصمت قليلا وقال باحتجاج لا يخلو من الرضا والغرور :

ــ هل تظننى قاضيا أو تظننى محاميا .. أفكارك عجيبة كأفكار أمك يا سمير .. أنا لا أزيد على أنى سبحان .. « ثم ضحك فجأة » لكن .. على قدر عقلى .. أقول إنه سيعدم ..

مصمص الشاب بشفتيه وأبدى اهتماما لا يزيد على الاهتمام العادى ثم قال مستطردا :

ــ من الغريب أن يكون جارنا هذا .. « وأشار نحو شباك درية » شاهدا فى هذه القضية ..

نظرت الأم بزاوية عينها بذكاء .. أما الأب فقد وثب فجأة ــ كما رسم « سمير » ــ إلى قصة الفتاة نفسها تاركا قصة زوجها :

ــ زوج « درية » .. ظلمه الله .. ما أخبارها يا أم « سمير » ؟! ألم تعد إلى بيتها بعد ؟..

قالت الأم بلهجة سريعة لم تخل من الأسف :

ــ وما أظنها ستعود ..

وعرف الشاب من تفاصيل القصة ما عرفه الناس ..

٩

وشيئا فشيئا استطاعت أن تسترد نفسها من ضجيج الماضى وأن تكشف أنها كائن مستقل فى حياته نوع من الاختيار .. فإن التعاسة التى تخيم على حياتنا قل أن يصاحبها من التذمر ما يصاحب حياة لا اختيار فيها حتى ولو كانت فردوسا .. فلو أن « درية » اليوم سلكت فى حاضرها ما يسبب لها التعاسة فإنها ولا شك ستكون أقل تذمرا ولو أن الماضى كثيرا ما يتغلغل فى حاضرنا كما ترقد فى باطننا أحداث الطفولة ..

كانت مثل المريض الناقه أحس حلاوة النسيم .. وعلى الرغم من عدم التجانس بين طبيعتها وطبيعة العاملات معها فى المشغل سوى « زينب » فقد شعرت براحة من يستهلك الوقت وبجهد من يعود مكدودا وبفقدان الوعى عند النوم وبلهفة اليقظة وقت الصباح .. وتجدد تطلعها إلى المستقبل فى وجوه ناس تتصورهم ولا تعرف أحدا منهم ثم فى وجه تشعر أنه يلح عليها يوما بعد يوم حتى كادت تلقاه قبل أن تلقاه .. وجه « سمير » ..

وعاودتها نظرتها القديمة إليه .. فتمنت أن يكون هو أصل مأساتها .. ثم ذكرت آراءه ووداعه قبل أن تنزل من بيتهم .. وكفه التى نسيت أن تفلت كفها يوم ذاك .. وفى مدينة مثل طنطا يمكن أن يلتقى الناس على سبيل المصادفة

فى المحلات ذات الشهرة أو عند أبواب الأضرحة الكبيرة .. حدث ذلك يوم الجمعة الثانى بعد خروج « درية » من بيت زوجها .. كانت تعبر الميدان الكبير الواقع أمام مسجد البدوى والمصلون ينصرفون .. وفجأة شمت رائحة ذكرتها بشخص .. رائحة العطور الزيتية التى تفوح من الباعة الواقفين هناك ذوى العمائم والعذبات .. فتذكرت « حسن شيحة » .. وشعرت فى هذه الوهلة أنه طلائع الماضى فوقفت تتلفت كأنما كانت تبحث عن شخص يؤكد لها أنها فعلت صوابا بخروجها من بيت « سلامة » ..

ومن بين ذوى الجلاليب القاعدين على درجات السلم الرخامى لباب المسجد حتى يلبسوا أحذيتهم رأت « حسن شيحة » ينهض .. ويمشى مشيته المألوفة مترنحا نحو اليمين ونحو الشمال كأنه يعرج بكلتا رجليه .. وهمت أن تحيد عن طريقه لكنها كانت فى مجال نظرة عينه السليمة التى ميزتها فى الزحام .. فغر فمه باسمها و لم يهتف به .. ثم تناول صرة كانت إلى جواره فيها قماش لفلاحات بدت ألوانه الفاقعة من خلال الشاش الأبيض ، وكانت « درية » متجهة إلى بيت « زينب » زميلتها التى كانت تنتظرها اليوم لتتغدى عندها .. فسار جنبها وهو يلهث . يتمرجح والصرة تحت إبطه وفى عينه شىء لا يوصف .. يمكن أن يكون حبا ويمكن أن يكون نداء ويمكن أن يكون لهفة ويمكن أن يكون تطلعا ويمكن أن يكون مخيفا ..

ـــ ذهبت إلى بيتك يا ست « درية » .. فوجدته .. آه .. لماذا ؟!

إن السيد سلامة مخطئ كل الخطأ إذ يتركك ..

قاطعته كأنما لتنجو من تأثير الحديث :

ـــ وكيف حالك أنت .. إلى أين أنت ذاهب ؟

فاستطرد وكأنه لم يسمع :

— أنا فى غاية الحزن لما حدث .. تصورى .. لقد ذهبت إلى بيتكم أمس لأسال عنك ..

— أى بيت ؟!

— بيت والدك .. إننى أعرف طنطا .. لا .. لم أسأل عنك ولا عن أحد لكن .. كان معى سلة من الزبد للسيد عبد المتعال وهو قريب منكم .. وطرقت بابكم وهى معى .. فلما رأيت ناسا غيرك عملت بياعا : هل تريدون شراء زبدة ؟!

أخذها عجب :

— ورفضوا طبعا ..

— ونزلت .. ولو رضوا لرضيت ..

— والسيد عبد المتعال ..

— تدبر ..

وتلجلج يريد أن يقول ما عجز عنه لسانه ونطقت به عينه وأخيرا قال :

— لقد رأيت السيد سلامة فى قطار المناشى منذ ليلتين .

فأطرقت صامتة لكن ملامحها كانت تدل على الاستزادة :

— إنه حزين .. ولما أخبرته بأننى لم أجد أحدا فى شقته قال إنه .. آه .. ومن الغريب أنه يفكر فى الزواج من الريف ..

وضحك فى احتجاج وهو سائر يظلع وينقل الصرة من إبط إلى إبط .. ثم استطرد :

— لما سألته عن الحكمة فى هذا .. لم يعرف الحكمة « وصمت » ويظهر

أنه لن يعرف الحكمة أبدا .. و .. كان و .. تشاجر مع راكب فى القطار وكاد يعتدى عليه بالضرب ..

وهدأ من مشيته ومد يده يسلم :

ـــ مع السلامة .. سأذهب من هنا إلى سجن طنطا .. معى أمانة لسجين .. سأوصلها .. ثم .. أسافر إلى القاهرة ..

ـــ وهل تعرف أحدا فى السجن ؟

قال فى تفاخر :

ـــ سجانين ومساجين .. ومنهم جاركم القديم الباشجاويش أبو اليزيد ..

همست وهى تمد يدها لوداعه :

ـــ ذكرتنى بزوجته ..

فسارع يقول كأنما قبل أن يتحرك بها قطار :

ـــ سيدة عظيمة .. لكن زوجها « عملى » أكثر منها .. إننى أؤدى لهم خدمات ..

ـــ وأنا أعمل الآن فى مشغل الزهور .. تعرفه أيضا ؟! وإن احتجت إلى شىء من الريف .. و .. فسأراك ..

أحست وهى تسلم أنه أودع فى كفها شيئا قبل أن ينصرف ، شيئا لا يرى فى الكف .. قطعة من النفس يراها الكف نفسه .. ثم شمت كفها بعد أن سارت فى نفس اللحظة التى كان هو يشم فيها كفه .. عطر مختلط .. ترك فى نفسه حنينا إليها وترك فى نفسها حنينا إلى نقطة نور رأتها فى أيام خلت .. وأصبحت كأنها بعيدة بعدة سنين ..

وكانت على شبه يقين بأن ما حملته لـ « حسن شيحة » سينتج شيئا ما .. وأهمه أنها سترى « سمير » ..

* * *

وفى هذه الليلة باتت تفكر ..

أشياء قالتها لها « زينب » على الغداء .. هذه الفتاة التى لم تتزوج بعد والتى ولدت معها فى شهر واحد .. وتميل إلى كثير مما تميل إليه وتكره كثيرا مما تكره .. ولم تذق طعم الحب حتى الآن وتحس نحو الرجال بأسى غامض كأنه حب معلق بسبب خيانة مؤكدة توقن أنها ستقع فى حياتها .. حتى كادت « درية » يوم سمعت منها هذا تدعو الله فى سرها ألا تلتقى بمثل « سلامة » وألا تكون قد التقت بشاب فى إحدى العمارات .. وفكرت فى أشياء غير ذلك .. ماذا فى داخلها ؟!.. لقد عذبت بضعة أشهر لأنه رآها ناقصة شيئا مهما .. وهى على الرغم من آثار العذاب تحس بإيمانها أنها تنقص شيئا .. وأن كل الحوادث الزوجية كابوس متصل قطعته فترات استغاثة لم يسمعها إلا الكابوس .. وكأن هذه الحوادث قد ألقت فى حياتها غطاء مثل غطاء البرعم كمنت فيه روحها الأصيلة حتى يجىء ربيع .. ولو عاما فى العمر كله تأخذ النفس فيه حقها فى الأزهار ثم لتسقط الزهرة .. المهم أن تتفتح تحت شمس محرقة أو ربيعية فذلك لا يهم ..

أحست وهى تفكر كأنما هى كائن لم يخض تجربة ما .. فترة عاشتها فى خوف دفنته وذلك قبل الزواج وفترة عاشتها فى خوف دفنها وذلك بعد الزواج .. ولا فرق بين حياة الخائف دافنا أو مدفونا فلا أحد يستطيع أن يطفو على سطح الظلام ..

وشعرت « درية » فى هذه الليلة أنها تملك ما تملكه كل فتاة .. كله بأجمعه .. وأنها إذا التقت بشخص تحبه فإنها ستقسم له أنها .. آه .. وتأوهت ..

وكفت عن التفكير وعضت شفتها فى خوف .. شعرت أن الماضى والحاضر تداخلا .. وأصبح الفصل بينهما عسيرا .. وشعرت أنها لن تصنع شيئا جديدا لو أنها اقترفت مع شخص تحبه .. فقد اعتبرت مقترفة دون ذنب ونالت مقدما العقوبة .. وما دام الجزاء المر تعادلا مع ذنب حلو فهى لن تفعل أكثر من أن تذنب بعد الجزاء ..

غير أنها شعرت باشمئزاز مفاجئ لهذه الأفكار . فمن هو هذا الذى ستطلب عنده الذنب لتكفر عن الجزاء إن صح هذا التعبير ؟!

وعندئذ تخايل لها « سمير » بشخصية الرجل والطفل وأحاديثه عن حبيبة الصياد يوم كانت عندهم ..

ثم ذكرت شيئا مهما كذلك .. هو أن أمها كل يوم توصيها على من فى بطنها لأنه وثيقة الشرف التى خرجت بها من ليالى السهر والدموع ..

وكانت نسمة غامضة ترف على شفتها كلما سمعت من أمها هذا الحديث .. فقد تصورت أمها وكأنها تتمنى لها أن تموت مخنوقة لكن بكمية كبيرة من الأزهار .. وأنها هى شخصيا لا تريد ذلك .. تتجه بقلبها نحو أفق مجهول يحرسه ديدبان من الخوف .. هذا هو إحساسها ..

وفى يوم الجمعة التالى قبل الظهر دخل « حسن شيحة » مشغل الزهور .. يحمل ملاءات ومفارش وفساتين من بيوت كثيرة .. بعضها فى الريف وبعضها فى المدينة .. وعجبت « درية » من شدة مبالغته .. ثم أيقنت أنه يحبها فقد كان يقدم هذا بلهفة وعينه تقول : سأبحث عن المزيد .. وجلس

فى المشغل يشرب شايا .. ثم استأذن وعلى ملامحه عجلة من يريد أن يذهب إلى السوق ..

* * *

وخلال هذه الأيام التى لا تكاد تبلغ شهرا كان « سمير » يخمن السبب الذى جعل حياة « درية » تنهار وفرض أسبابا ليس بينها السبب الحقيقى .. وفى مساء البارحة وهو يوم الخميس جلس يستمع إلى الحديث الذى يطلقه « حسن شيحة » فى بيتهم فأخذ يصور زوجها كما عرفه .. « على حد قوله » .. فبدلا من أن يمدح الصديق ذم الخصم .. وما داما افترقا فإن الحسن والسيئ قد أبيا أن يلتقيا فى « درية » و « سلامة » .. هذا الذى يعرف كل مكان مريب فى مدينة طنطا والذى يأخذ نقود القرويين السذج — فى المحطات التى ليس بها شباك للتذاكر — ولا يعطيهم قسائم .. وأقسم « حسن شيحة » أنه رآه مرة يرمى إلى زميل له فى إحدى المحطات بعد أن تحرك القطار سلة كبيرة لأحد الركاب دون أن يفطن صاحبها .. فهى سرقة ومزاح وهدية وجبروت ..

وأنه كان فى أيام الحرب يهرب المسروقات من مخازن الإنجليز .. وأن هذا العمل وإن اختلف الناس فيه يعد فى نظره « نظر حسن شيحة » مخلا بالشرف ..

وما لبث أن سمع قهقهة أبى اليزيد كأنما ينبهه لوجوده فكف عن الحديث .. لكن « سمير » أيقن أن مثل « درية » لم تفارقه إلا لأنها رأت الحياة معه شيئا غير ممكن حقا ..

— والليلة مساء الجمعة ..

وعند مشغل الزهور توقف دون أن يحس .. وحملق فى الداخل واتخذت سحنته هيأة شاب غريب عن المدينة يبحث عن محل معين .. « هذا هو سمير » وقعت عليه عينا « درية » وهى منكبة على إحدى الماكينات فعادت الذكرى لكليهما .. ذكرى اللقاء الأول حين رآها جالسة على ماكينة الخياطة فى بيتهم تحيك له بيجاما بخطوط زرقاء ..

وفى عينيها بدا ولَه غريب .. ولَه امرأة غمز قلبها فجأة .. ولم تملك حيال ربكتها لدخوله وقصده إليها إلا أن تتوقف وتنظر وعلى وجهها « نعم » وبكل لغات البشر .. وحتى بلغة الصمت ..

وكان تحت إبطه لفافة مسافر .. وكان أزيز الماكينات يتضاءل فى اللحظة التى انفرجت فيها شفتاه عن سؤال وألقاه بثبات وإهمال وبشوق من يريد أن يعرف مصير شخص معين :

ـــ هناك رجل ريفى اسمه « حسن شيحة » أريد أن أعرف هل مر عليكم ؟

هزت رأسها بإيجاب وابتسمت .. ثم غمغمت باسمة .. ولم يسمعه أحد غيرها ثم عادت فأمسكت بما كان بين يديها وأخذت تدير محرك الماكينة من جديد .. على حين استطرد « سمير » :

ـــ إنه مسافر معى .. واتفق معى على أن ألقاه هنا ..

فرد صاحب المحل بجفاوة :

ـــ نعم نعم ذلك الذى حمل لنا عشر ملاءات وخمسين مفرشا .. آه .. من الممكن أن تنتظر .. مرحبا ..

وجلس « سمير » عند باب المحل يحكى لصاحب الدكان حكايات غريبة ..

عن زوجات أبيه الثلاث وعن ندرة البنين فى أسرتهم .. وأن والده يزوج كل سنة بنتا .. وأن كل أشغال العرايس ستكون هنا عن طريقه أو طريق « حسن شيحة » ..

وزاد ترحيب صاحب المشغل ، ذلك الرجل القصير ذو الحدبة والشاربين والنظرة المتسلطة .. وطلب لـ « سمير » زجاجة كازوزة من الحجم الكبير ..

ولم يلبث « سمير » أن نظر فى ساعة معصمه واعتذر واستأذن ليدرك القطار قائلا والكلام موجه لمن يهمه :

— إذا جاء « حسن شيحة » بعد انصرافى فممكن أن يلحقنى على المحطة ..

وكان مرتبكا كأنه محتاج حقيقة إليه وكأنه لا يملك ثمن التذكرة ومصيره مرتبط بوصول هذا الشخص .. ثم انسحب فى شبه ذل .. وتبعته عينا « درية » فى تلصص وقلبها يخفق .. لكنها جفلت من أفكارها وشملها سهوم بقية وقت العمل .. وعند انصرافها أحست به يبرز فجأة من مكان فى أحد الشوارع على بعد من المشغل وفى يده حقيبة سفر لعلها كانت معه ولم ترها أو لعله أتى بها من البيت ..

وعند هذا المنعرج الذى ظهر منه كان النور غير زاه والشارع غير مزحوم .. وهناك مدرسة وزاوية ومحلات أصحابها يرتاحون يوم الجمعة .. وخطوات وقعها غير مسموع من حذاء من « الكريب » يلبسه « سمير » ..

ولم يسمع إلا شهيقها أول الأمر ثم قالت وهى تتلفت :

— فى الشارع ؟ أتريد أن .. أنا اليوم أكثر تعرضا للـ .. ثم .. آ ..

— تعالى من هنا إن كنت خائفة ..

الشارع الذى عرجا عليه من أرض الأحكار أصلا .. مبانيه من طبقة واحدة فى الغالب معظمها دكاكين مغلقة الأبواب تفوح منها روائح فى بعض الأماكن تدل على نوع البضاعة التى بداخلها .. لافتاتها فى الظلام إلا ما وقع أمام القناديل المتباعدة فى شكل يوقظ مشاعر مبهمة .. أشبه بمشاعر البلبلة التى نحسها عندما نرى اثنين يتهامسان على مقربة منا .. وأقفال مستلقية على العتبات بعضها يلمع ببريق رصاصى وبعضها يلمع ببريق نحاسى .. وغناء بعيد من مقاهى الشارع الرئيسى والسماء فى صفائها الربيعى الأليف ..

وكل ما تحسه « درية » أن الشارع أخذ فى الارتفاع وان الدوار القديم الذى عراها وهى تصعد سلم عمارة عالية للمرة الأولى فى حياتها قد عاودها الليلة .. لكنه على المخاوف التى تؤازره ليس خاليا من تلذذ الفضول والوسوسة .. وسوسة الصوت الذهبى ذى الرنين المختصر .. تسمعه المرأة من أول حلية لبستها .. وودت لو أن المسرات المخطوفة تحملها « صواعق » .. لو أن قصة جديدة لها تبدأ بصورة تتمناها ثم تنمو وتنتهى بسرعة ولا يكون لها رأى إلا أن تحملها بسرعة حوادث حبها فى فصول القصة كما تحرك « الصاجات » راقصة مخمورة ..

ثم أخذت تقرأ اللافتات تباعا بأطراف شعورها .. كأنها تبحث عن عنوان تسير إليه فى صمت .. ولمدة هذه الدقائق التى قطعا فيها بضعة وعشرين مترا شعرت بلذة أنها مسلوبة الإرادة ربما لأنها كانت تبحث فى حياتها عن أهم الأشياء ولم يكن سوى شخص يعترف لها أنه سبب تعاستها ..

أما هو فقد أحس بوجوب حماية من سبب لها هذا الإحراج حتى أمام نفسها. ثم بوجوب حماية نفسه أمامها مخافة أن يكون فى عينيها أقل رجولة من

المستوى المطلوب . وبدت له الدنيا التى يحلم بأن يغيرها محصورة فى هذا الشارع المقفل الأبواب واللافتات المتتابعة التى يقع معظمها فى ظلام يحول بين العين والقراءة .. والأحجار المربعة يرن عليها حذاء « درية » .. وشخصان أثنان .. كآدم وحواء .

ــ ماذا حدث يا « درية » ؟!

كان صوته هامسا مرتبكا لم يخل من التهدج ..

ــ ألم تعلم ؟.. هاه .. حتى أمك الغالية .. لم تسأل عنى ..

ــ أنت فى بالنا باستمرار .. هل من المستحيل أن تعود حياتكما من جديد ؟!

ــ هذا الكلام يجرح شعورى .. وإذا كنت تحب أن تقول فليست هذه هى الطريقة ..

وبدأ الشارع يتعرج بشكل غير مألوف فاستطردت بعد صمت :

ــ من منا يقود خطوات الآخر يا « سمير » .. إن هذا الشارع لا يؤدى فيما أظن إلى محطة السكة الحديد ..

ــ لم أفكر فى المصب .. المهم أنى عثرت على المنبع « وكتم ضحكة » كنت أود أن تقوم علاقة ما بينك وبين أمى .

ــ لا أستطيع أن أرى شباكى القديم .. ولا حتى القطة ولا .. الـ .. آه ..

ــ لكننى أراه .. وأرى صاحبه .. رأيته يسقى الأصص التى تركتها ، ومرة أخرى يضع بينها أصيصا من الصبار ..

غمغمت بالضحك :

ــ مقبرة ؟!



كان النور غير زاه والشارع غير مزحوم ..

— صبار من نوع غريب .. له أوراق مثل السيوف وأزهار فى لون البنفسج .. « وسكت ووقف ليأخذ طريقا فرعيا يؤدى إلى مكان قريب من المحطة » :

— كأن القصة كانت شؤما عليه ..

همست بصوت لم يسمعه الليل :

— أى قصة ؟

— حبيبة الصياد ..

ولم يدر كل منهما كيف أمسك بكفى الآخر .. كأنما كان كل منهما يخشى أن يسقط فى هوة على الطريق .. وبصوت نصف باك قالت له ..

— هذه القصة .. تخيفنى .. تعال نرجع ..

ولم يتحرك أى منهما .. وعادا فتماسكا كمن يعبران قنطرة ضيقة فوق نهر ، وعلى بعد منهما كانت لافتة بيضاء مكتوبة بالأحمر نصفها فى الظلام ونصفها فى النور على واجهة محل أغلق بابه بحزام من الحديد : « صائغ وجـ .. » وغطى الظلام بقية الكلام : « .. وجواهرجى » وكانت تعرف ما هى الكلمة التى غطاها الكلام .. قالت بما يشبه التوسل .

— ارجع وحدك .. وسأرجع وحدى ..

— تضلين الطريق ..

« هه هه هه » بدايات ثلاث لثلاث ضحكات هستيرية متلاحقة لم تكتمل .. كأنما سخرت من فكرته .. « فقد ضلت وهى تتنزه ذات يوم .. » ..

— هه هه هه .. تريد أن تهدينى ؟.. تعال نرجع .. ليتنى ألبس مثلك حذاء لا يسمع له صوت .. لم تنظر فى الساعة ؟ فاتك القطار ؟! لم أر من قبل صبارا

له أزهار فى لون البنفسج .. ولا طائرا له أجنحة من الحجارة .. إلا .. آه .. فى بيتنا وبيتكم ..

انتفض قائلا :

ـــ لأول مرة أشعر بالعذاب ...

ـــ لماذا ؟!

ـــ لأنى تأخرت ..

ـــ من الضرورى أن هناك قطارات بعده ..

ـــ ليس هذا قصدى ..

ردت كمن فهم فجأة :

ـــ آه .. إننى أفزع من حوادث القطارات ، لا تكثر من ذكرها أمامى ..

وتوالت اللافتات .. وهما ماشيان .. حقيبة فى يده ووقع أقدام لا يسمع ، وهى .. لا يكاد همسها يعلو على وقع أقدامها .. لافتات .. « عطور العرايس » .. « صالون السعادة » .. « زيت الحلبة يدر لبن الأم » .. لافتات .. ووسوسة .. وقناديل كأعين متعبة أصحابها فى الطريق إلى النور ..

وجاءها فى هذه اللحظة خاطران يتعلقان بأمها وحدها . يوم هنأتها ببدء الأنوثة وهى لا تدرى عم تتكلم .. ويوم وقفت إلى جوارها وهى تتهيأ للقىء وهى لا تدرى أيضا عم تتكلم .

وعاودتها وسوسة الصوت الذهبى ذى الرنين المختصر الذى تسمعه المرأة من أول حلية لبستها . وكبلتها رغبة من تعرف سرها وحدها ـــ فى أن تحملها حوادث حب فى فصول قصة كما تحرك « الصاجات » راقصة مخمورة ..

ـــ أنت كثيرة المخاوف .. هل كانوا يتركونك فى الظلام وحدك وأنت

صغيرة ؟!

ضحكت :

ـــ لا .. تركونى فى الظلام وأنا كبيرة ..

نفخ ثم قال :

ـــ ألا تريدين العودة إلى بيتك ؟

ردت بهمود :

ـــ لا ..

نظر فى ساعة معصمه وقال :

ـــ إذن عندنا وقت فى حدود ساعتين ..

بدت الدهشة على وجهها :

ـــ عن أى بيت تتكلم ؟!

فقال فى تخاذل :

ـــ آسف .. أخطأ كل منا قصد صاحبه ..

وعاد صمت متوتر .. بالنسبة إليها كان فى غاية الشذوذ .. « لو ينطفئ النور كله فى المدينة » .. « لو أن على عينى كل منا عصابة تحجبه عن الآخر .. » . « لو .. » .

وسيطر عليها الميل إلى الخطأ المخبوء .. ميل من لم تنصره الفضائل .. كأنما كان هذا الميل نوعا من العمل الإرادى المستور المرغوب يمكن أن يكون رد فعل لعمل غير إرادى مستور لكن غير مرغوب وقع لها وهى على وشك التفتح ..

وكان على وجهه أمارات أسف ناطقة بالحب ، فقالت له :

ـــ هل تألمت منى ؟!

شعرت أن همسها يربت خده ويحمل إليه اعتذارا فقال :

— كنت أود أن أقضى معك ساعة من الوقت لكنك .. آه ..

قالت جادة فى شبه مزاح :

— ظننتك تقول الوقت كله .. بعض الوقت ؟!.. ذلك يخيفنى مثل حوادث القطارات .. لكننى أخاف منك ..

كان يلوى كفها نحو معصمها فالتوت معه فى حركة مطواع .. وكان فى هذه الوهلة ينتفع بخيالاته بأن هذا دليل على الاستسلام ..

وتبين برودة أناملها عندما ذكرت كلمة الخوف فقال :

— لك الحق فى أن تخافى .. أنا أعرف ظروفك ..

ضحكة صغيرة أكثر امتلاء بالشجاعة .. ترفض الرثاء وتطلب منه شيئا سواه لم تخل — عن قصد — من سر الأنوثة فجعلته أكثر انتباها وأشد تعلقا :

— أنا خائفة منك أكثر من ظروفى نفسها .

شهق :

— أنا ؟!

— نعم .. أنا معترفة بأنك تبدو حينا فى حكمة الرجل وحينا فى .. آ .. طفل .. لا تقاطعنى .. إننى أحب الأطفال ولكننى أخاف من الرجال ..

وأحست فجأة بحاجة إلى البكاء .. ذلك الذى نحس بالحاجة إليه حين نعبر عن نفسنا بصدق قد لا يقدره الناس .. وعادت إليها على الحائط المبيض بالجير لافتة من جديد : « زيت الحلبة يدر لبن الأم » فالتقطت بأناملها اليسرى دمعتين نفضتهما على الطريق أمامهما .. على حين كان هو فى شبه غيبوبة ثم همس مرددا قولها :

— تحبين .. الأطفال .. وتخافين من الرجال ..

« صمتت .. ثم ضغط كفها كأنه يريد أن يكسرها وقد وقفا عند منعطف » :

— ومن تريدين منى ؟!

واضطرب سيرهما .. هناك تلامس غير مقصود .. يستبقى فيفعل ما لا يفعله التدبير .. وتساءل كل فى نفسه : كيف يسيران هكذا وفى المدينة سقوف كثيرة ؟! وهى فى هذه اللحظة فى حالة « انفصام » فلا علم لها بالماضى ولا فكرة عن المستقبل . كيوم بلا اسم بين آلاف الأسابيع من العمر .. لا جمعة ولا سبت ولا ما بينهما .. ولو أنه يقول لها لأطاعت .. ولو أنها تقول له لأطاع .. كفا الآن عن لعبة « شد الحبل » التى تقوم بين الرجل والمرأة وأرخى كل منهما ذراعه ليشده الثانى إليه :

— لماذا لم تردى على ؟! هل تريدين منى الرجل أو الطفل ؟!

وضعت يدها على ساعدها وردت كمن تريد أخذ أقل النصيبين وأكثرهما ضمانا ، وفى صوتها رجفة ..

— الطفل .. أحسن .. لا أريد أن أشعر الحزن .. طفل يحبو حول أمه خير من رجل .. آه .. لقد أثرت همومى ..

جذبها إليه ثم أفلتها .. وهمس :

— ليس فى المدينة مكان يؤوينا .. هل هذا معقول ؟!

لم ترد .. وكانا ينظران فى كل اتجاه .. وعاد فلو كفها نحو معصمها فألفاها أكثر استسلاما .. وعندئذ لمح على بعد من أحد المداخل الفرعية لافتة مضيئة لأحد الحوانيت .. فترك الحقيبة إلى جانبها على الأرض وجرى :

« انتظرينى » .. ثم عاد بعد دقائق .. كان منها على مرمى بصرها باستمرار شبحا مندمجا فى الليل .. هو وظلال الحوائط وخفقات القلب والمخاوف وسرها الشخصى شىء واحد .. وعاد فوجدها قد حملت حقيبته تمشى متسللة بها مثل الطيف .. وغمز قلبه منظر سيدة تحمل حقيبته الشخصية .. ثم وقف .. ولم يأخذ الحقيبة منها . أخرج نظارة الشمس ووضعها على عينيه ثم فوق إحدى عينيه قطعة كبيرة من القطن الذى اشتراه وغطى عينه الأخرى شيئا ما ، فبدا كأنه خارج من عملية أو متهيئ لها .. واكتسى وجهه عندما أطرق طابعا حزينا ..

أحست « درية » وهى تنظر إلى كل هذا أن قصة مثل التى تمنتها على وشك أن تقع .. لكن قشعريرة عرت بدنها كله وقذف بها « الخوف » إلى ذكريات « الخوف » ... فشعرت بما سلبها إرادة نفسها خصوصا عندما سار إلى جوارها وهو يقول :

قودينى إلى اللوكاندة الصغيرة التى مررنا بها منذ قليل .. إنها فى هذا الشارع .. عودى بنا ..

ـــ أنت .. أنت ماذا تريد ؟!

ـــ هأنذا لم أعد أرى شيئا .. مضرب عن الرؤية حتى ترفعى الغطاء عن عينى ..

* * *

ومثل زوجة شابة سألت صاحب اللوكاندة عن اسم طبيب عيون يثقون فيه وعلى شفتيها علامات ألم .. تحمل الحقيبة ويبدو الاضطراب على وجهها .. وتنقل بصرها من وجه الشاب إلى وجه صاحب اللوكاندة المحزون .. وأخرج

« سمير » منديله وأخذ يتمخط حتى التهبت أرنبة أنفه كمريض بعينه . ثم قادهم صبى صغير إلى إحدى الحجرات .

اللوكاندة مبنية أيضا على أرض الأحكار غرفاتها تطل على سطوح دكاكين فى بعض النواحى وأيضا على مساحة واسعة مسورة تستعمل « جراج » مكشوفا لسيارات النقل .. وليس فيها نور .. وهناك خفير مسن يكمن فى أحد الأركان يغنى وحده أغنية تحمل ذكريات شبابه .. صوته نائم مستكين يناغى الليل ..

وكان فى الحجرة ما يمكن أن يسمى « شيزلونج » وسرير كبير عليه ملاءة لم تغير .. والنافذة الوحيدة عند أقدام السرير بينه وبين صوان الملابس .. وعلى الحائط صورة لغزال وصياد وبحيرة ماء شحيحة وسماء ملبدة بالغيوم .. لم تلفت هذه الصورة نظر « درية » قدر ما لفت نظرها بقعة على الحائط هناك فى أعلاه ناتجة من نشع دورة المياه العليا .. كانت هذه البقعة تمثل فى نظرها وجه امرأة على وشك أن تصرخ ..

« سمير » جالس على « الشيزلونج » وهى على كرسى عال من الخيزران على مقربة منه .. ورفع الضمادات وحملق فى الحجرة ثم قال لـ « درية » :

— كأن عينى لم تقع على وجهك من قبل .. ما أحلى نور الدنيا .. هل تسمعين الغناء .. هذا الصوت يشجينى .. الخوف ظاهر عليك .. إحم إحم .. على كل حال على أن أبيت هنا ولك أن تنصرفى .. بحجة .. آ ..

قطعت عليه حديثه قائلة بهمس لا يخلو من خوف وأمر :

— غط عينيك كما وعدتنى .. لا أطيق أن ..

ابتسم هامسا :

ـــ غير ممكن ..

ـــ سنكون محلا للشبهة إذا ما طرق علينا الباب أحد . مالى فعلت هذا ؟

وتلفتت حولها كأنها تريد أن تبحث عن مخرج .. غير أنها وجدت أن الطرف الآخر قد يخطئ فى سبيل حرصه على ما يريد فتكون النتيجة رديئة .. فضلا على أنها مسئولة عما وصلت إليه الآن .. وحملقت مرة أخرى إلى النشع فى أعلى الحائط ثم هبطت ببصرها إلى الصياد وعندما وقع نظرها على « سمير » ألفته قد لبس قناعه وأخذ يهمس :

ـــ أنت مخطئة .. فممكن أن أراك بأطراف أصابعى .. بجوارحى الأخرى ممكن أن أراك ..

وكانت فى هذه اللحظة قد أغمضت عينيها تماما .. وودت لو وضعت عصابة على بصرها ، كتجربة فى مكان مجهول مع شخص مجهول تحرص على ألا تترك من آثارها إلا بقدر ما تريد هى شخصيا .. استخفاء من النفس .. مع رثاء كثير تحول إلى استصغار ثم ميل لامتهان النفس ..

شهقات مكتومة ودموع وكفه ممدودة إليها تلمس أنامله صفحة خدها .. وارتفع فى الأرض الفضاء غناء الحارس .. لكنه ما لبث أن تلاشى فى ضجيج أصوات لناس قادمين .. أو راحلين .. ثم محرك سيارة يلح عليه شخص ليصلحه فطفا على المكان أزيز مستمر كأنه من طيارة .. جعل صوت « سمير » لا يصل إليها فجذبها لتجلس إلى جواره فانجذبت إليه تماما أكثر مما كانت تتصور .. وفى غيبوبتها ملأت أنفها روائح لا تحصى : « بنزين وعطر وغبار وكاوتش وعرق رجل وقطن طبى وتبغ ونفتالين ورطوبة » ..

أما الأصوات فى أذنها فكلها آتية من الخارج بخلاف الروائح التى كان

بعضها وافدا وبعضها نابعا من الحجرة .. فمع رائحة البنزين سمعت صوت المحرك ومع رائحة العطر .. لم يكن صوت .. ومع الغبار والكاوتش صوت شاكوش .. ومع العرق والقطن الطبى والنفتالين والرطوبة لم يكن صوت .. دودة القز تدخل الشرنقة فى صمت يعنى معنى الموت ..

ثم .. ما لبث إحساسها أن رجع فى نفس الخط إلى نقطة الاستخفاء من النفس ومن عينيها المرهفتين نظرت إليه وهو مطرق .. كان يفرك كفيه كمن فرغ من مقامرة أفرغ فيها جيوبه وانتهى .. لماذا لم يكن سعيدا .. أقصد : لماذا كان موقفه خاليا من السعادة .. من إحساس الرجل بذاته ولو بعد فعل لا ترتضيه ؟!

أما « درية » فكانت لكى تخرج تجمع فى لهوجة .. تجمع لا شىء وإن كانت تجمع شتات نفسها لا غير .. وواجهها فى إحدى مرايا الزينة المستطيلة وجه فزعت منه .. ولما استبانت الموقف شهقت وقالت له وهو لا يزال فى وضعه الأول جالسا مطرقا يفرك كفيه وقد أولاها ظهره :

ــ ماذا أقول وأنا خارجة ؟

فكر وقد أولته ظهرها متأهبة للخروج .. وطال صمته فهمت أن تعيد السؤال لكنه قال لها :

ــ اسألى من فى الباب عن أقرب صيدلية ثم .. انتظرى .. وبعد أن تعرفى اسمها لا تخرجى فورا .. اجلسى قليلا فى المدخل وغطى وجهك بكفيك كمن يعانى صداعا .. وأنا منتظرك فى الصباح لتخرجى لى ..

وهبطت السلم الذى كادت تضل طريقه .. وفى مدخل اللوكاندة فعلت ما أوصى به ..

وخرجت إلى الشارع فقابلها الليل وظلال الجدران والقناديل المتعبة والأبواب الموصدة بأقفالها المتوسدة للعتبات وأحزمتها الحديدية واللافتات التى قرأتها واحدة واحدة .. « صائغ وجواهرجى » و « زيت الحلبة يدر لبن الأم » غير أنها كانت تمر على هذا كله وكأنها شبح .. كأنها تركت ذاكرتها هناك وعادت .. أو أودعت شخصية مثل شخصيتها هناك فى الحجرة .. حيث لا زالت رائحة البنزين تختلط برائحة العطر .. والنفتالين بالقطن الطبى والعرق .. و « سمير » راقد فى الظلام يعجب لكل ما حدث ويلقى بسمعه إلى غناء الحارس فى « الجراج » المكشوف ..

* * *

وسألتها أمها لماذا هى شاحبة وعليها آثار بكاء فأجابتها بأن أم زميلتها زينب قد ماتت أمس و لم يكن أحد فى مشغل الزهور يعلم لكنها ذهبت الليلة إليها .. كذبة صادقة لأن أم زينب ماتت منذ عام وأخذت « درية » تستمع إلى همهمة أمها بين حين وحين : ليتها عاشت حتى زوجتها .. الحزن يضر الجنين ..

كظمت غيظها وذهبت إلى مخدعها .. لكنها لم تدر — حين استيقظت — لماذا نامت هكذا ؟! ولشد ما حزنت عندما رأت نور الشمس .. فكثيرا ما نتمنى أن يستغرقنا النوم إلى ما لا نهاية ..

وعلى الرغم من تأخرها عن ميعاد عملها فقد تذكرت ذلك الذى ينتظرها هناك .. لتقود خطاه خارجة من اللوكاندة .. لكنها قررت ألا تفعل .. وفجأة اتخذت قرارا آخر .. هو ألا تخرج من البيت طوال هذا اليوم ..

وعادت فتدثرت بغطائها .. غطت وجهها فأخذها النوم .. فى الوقت الذى كان فيه « سمير » فى مدخل اللوكاندة يطلب عربة تمر به على أقرب صيدلية .. حيث تنتظره هناك زوجته فى طريقهما إلى الطبيب .. كما زعم ..

١٠

كان يتذكر قصصا عن العدل لقضاة .. وقصصا عن السلوك لواعظين ومصلحين .. وقصصا عن مرض الأطباء .. عما يسمى فى الحياة تناقضات .. فلم يهتد عندما فكر وهو جالس إلى مكتبه إلى أن الوظيفة ليست « بيئة طبيعية » تمنح الشخص كل ما يلزم لكى لا يكون متناقضا معها .. لكى يعيش فيها كالسمك فى الماء أو الطير فى الهواء ..

ونظر إلى النتيجة المعلقة أمامه على الحائط كانت تعين يوما من أيام مايو وفى هامش الورقة التى تحمل التاريخ وجد حكمة مكتوبة ..

وعندئذ سحب قلما وورقة وجعل يكتب كمن لا يجد ما يفعله :

« محاربة شهوات الناس تبدأ بعد أن نفرغ من خنق شهواتنا » ..

سكت وسرح ثم أخذ يقرأ العبارة وكأنه هو غير من نقلها من هامش الورقة .. ومط شفتيه نحوها .. واقترب منها يحملق .. وابتعد عنها يحملق .. ثم بحث عن سيجارة وأشعلها .. أحس لها بنكهة فريدة .. يكاد التلذذ بها يكون تخاطبا مع الشهوة .. وعندئذ شعر بالضد .. شعر بأن « المصلح » خلاصة الخلاصات ..

وحضرته صور لناس سمع عنهم فى التاريخ .. وصور لناس عاصرهم فتبسم



لشد ما حزنت عندما رأت نور الشمس ..

.. ثم وجد أمامه شيئا كان نسيه . « عدسة » موضوعة على المكتب خلف « المنبه » الذى يدق برتابة .. وأمسك بها .. إنه يشعل بها السجاير من الشمس ويكبر بها الخطوط .. وألفى نفسه يركزها على العبارة المكتوبة .. فكبرت عدة مرات .. وكانت مساحة « العدسة » تسع كلمتين فحسب .. ووقف بها طويلا أمام كلمتى : « شهوات الناس » خيل إليه أنه يجمع بها خيوط الحوادث بالليل كما يجمع بها خيوط الشمس بالنهار .. كأنه قد ركزها على التاريخ .. فتذكر ضروبا مختلفة من الشهوات تحدث عنها الأساتذة والزملاء والصحف وربما المجاذيب .. تجرى فى دماء البشر كما يجرى المرض ليختار أضعف عضو .. والويل للناس لمن وجدت الشهوة « رأسه » أضعف عضو فيه ..

ضحك خطفا .. وخيل إليه أنه يسمع أزيز ماكينة تنكب عليها امرأة فى طنطا فى بطنها جنين .. خاف .. وانتقل فجأة خياله إلى مكان مجهول لم يره طول عمره لكنه واضح أمام عينيه .. وضوح النظر رآه فى المنام عدة مرات .. أو من نافذة قطار وهو طفل مسافر مع أبيه إلى الريف ..

مبنى على هيئة زاوية قائمة واقع بين الحقول على مقربة من فرع رشيد بعيد عن القرى محفوف بالأشجار .. تؤنسه بالليل همسات منثورة فى بعض الحجرات وبه كل ما يلزم الأخصائى الاجتماعى ..

وفى هذا المبنى هو راقد يحلم .. يحلم غير نائم بتلك المدينة التى أحبها وستلحق به فى الريف لتعيش معه هناك .

وعندئذ تذكر شخصية المصلح فى القرية .. ماذا يحدث لو أن « درية » لحقت به و ..

ولم يسمح لنفسه أن يكمل فكرته .. عادت إليه حوادث طنطا على أنها

موقعة محتمة لم تخض بعد .. وتصور أن تفاصيل ما حدث وصل إلى اسماع أبيه .. عندئذ سيضحك ويضحك وتهتز ذقنه العريضة المصقولة التى كأنها منحوتة وسيتحدث عن الشرف مثل حفيد للشرف عاشره إلى أن لفظ نفسه الأخير ..

وأمسك « سمير » بالعدسة ورمى بها إلى أعلى ثم التقطها .. وعاد فركزها على ما كتب .. توقف على كلمتى : « خنق شهواتنا .. » وعادت العدسة وكأنها تجمع خيوط الحوادث كما تجمع خيوط الشمس .. فتذكر ضروبا مختلفة من الانتصار على النفس تحدث عنها الأساتذة والزملاء والصحف وربما المجاذيب .. ثم ذكر طموحه فى أن يغير الدنيا كطموح كل شاب .. فعزت عليه فكرته .. أحس كأنها شيء قابل للكسر قد سقط منه وقد انشرخ .. وعبس .. ومد يده إلى المرآة الصغيرة بجوار المنبه فنظر فيها كأنه يفتش عن القناع الذى استخفى به عن الناس فى تلك الليلة .. وعن « درية » نفسها .. وود لو أنه وضعه على عينيه باستمرار ليختفى به عن نفسه ..

لكنه ما لبث أن تعزى .. فإلى أن يهتدى إلى الطريق فلا بد له من الخطأ ..

وعاد إلى خياله ، أزيز الماكينات فى مشغل الزهور .. وشعر أسود مفروق من الوسط وفتاة شاحبة صغيرة القد .. كان وجهها خمريا .. تآكل جسمها من الأفكار .. ولعلها تمشى كل ليلة — وكلما بدا لها — فى ذلك الشارع ذى الأبواب الموصدة والأحجار الرمادية ..

وعاد فأمسك بالعدسة وركزها على « المنبه » فرأى عقرب الثوانى فى أضعاف حجمه .. يجرى محموما .. وكأنما استطاعت العدسة أن تضخم الحركة كما قد ضخمت الحجم فشعر كأنها تتضاعف وكأن الزمن يفر لا يمر

.. وكأنه عين أخصائيا فى قريته .. قرية أبيه .. تلك التى تتحدث عنها أمه بفخار ليس هناك مبرر واحد له إلا أنها وطن ..

وخيل إليه أنه بدأ عمله : يشغله الآن ما قاله أحد أساتذته : « أن يجعل الإنسان معترفا بقيمة الإنسان » ..

كتبها « سمير » بالقلم الرصاص .. على الورقة التى نزعها من النتيجة كأنه يريد أن يفحص هذه الكلمة وركز عليها العدسة فبدت له كلمة « الإنسان » كبيرة وضاءة مثل البقعة الماسية التى تتجمع فى هذه العدسة نفسها إذا ما لم بها خيوط الشمس .. وأحس فى هذه اللحظة أنه ينتسب إلى قطيع غريب يمشى فى مجموعات شتى ليبحث عن قطيع أرقى .. لكن هذا القطيع الأرقى ليس موجودا فى أرض غير التى نبحث فيها .. ليس تحت أقدامنا ولا فوق رءوسنا .. بل إن القطيع موجود فى نفس القطيع كسيوف مدرجة فى أغمادها .. والبطل من يخرج هذه السيوف ..

وعاد فتذكر كبوته .. وهرب منها بسرعة : « هل يوجد شباب بلا كبوات ؟! .. وتنهد لأنه أحس أنه حطم شيئا .. وعاد يركز العدسة على عقرب الثوانى الذى يتكلم عن مرور الزمن بأسرع لغة .. حتى قذف به إلى قريته من جديد .. وهناك تخيل أنه استطاع أن يبنى له مكانة فى قلوب الناس حتى بهروا يتحدثون عنه ، لكن « درية » وفدت إليه لتقول له : « تعال لتتحمل المسئولية معى إلا إذا كنت يومها هاربا تحت نظارتك » ..

وأحس بضيق فلبس ملابسه ليخرج .. لكنه عند عتبة البيت لقى شخصا لم يكن يخطر على باله كان قاصدا إليه .. معه ورقة ملفوفة وكيس كبير من الورق .. ومنظره لا تخطئه العين .. إنه « حسن شيحة » .. رآه « سمير » فدق

قلبه . نبضات فيها الخوف واللهفة والترقب . لكنه على كل حال أحس أن شيئا هاما على وشك أن يعرف ..

وفاحت من « حسن شيحة » رائحة العطر الزيتى المألوف وصافح « سمير » وهو يبتسم .. وعندما استقر بهما المكان قدم له اللفافة الأولى فعرف « سمير » أنها كتاب قد بقله إلى طنطا فظنت أمه أنه محتاج إليه وأنه قد نسيه و لم يكن على درجة كبيرة من الأهمية فقد كان على هامش الهامش من دراساته .. أما الكيس ففيه طعام من صنعها .. فاحت منه رائحة زبد القرية .. وقلب الأم ..

وأحس « سمير » بما ترسله فى النفوس من هدوء نغمات ناى ساذج يملك القدرة على سحب النفس من الهموم .. هكذا فعل به منظر « حسن شيحة » وحكاياته .. خصوصا عندما أخذ يعلق على منظر فتيات المدينة ويوازن بينهن وبين الريفيات .. « ناس يضعن طلاء الأظافر فى أصابع الرجلين وناس تملأ الشقوق فيهن أصابع اليدين .. حكمة .. » ..

وفجأة وجد « سمير » نفسه يسأل :

— وكيف حال سلامة يا عم « حسن » ؟

انسربت من عينه السليمة نظرة القواد حين يعرف مغزى سؤال .. وتعثرت بسمة على شفتيه وتنهد .. ثم تناول العدسة التى كانت فى يد « سمير » وركزها على كفيه هو لحظة كأنه يبحث فيها عن خط الحب .. ثم قال وقد سرح بعينه فى فضاء الحجرة :

— قابلته فى طنطا عائدا بالليل إلى بيته فى وقت متأخر فى صحبة فتاة لا تتجاوز السادسة عشرة من العمر .. عجفاء مثل معز الجبل ..

سأل « سمير » كمن يجهل :

ــ ومن تكون ؟.. يعنى ..

وتخايلت فى عين « حسن شيحة » نظرة القواد مرة أخرى ثم عاد يقول متناسيا سؤال « سمير » :

ــ وقابلته فى القطار فطلب منى أن أبحث له عن عروسة فلما قلت له لقد سبق أن طلبت منى فتاة ريفية ضحك معدلا طلباته بأنه يريد أن يتزوج من سبق لها الزواج مرتين .. الله أعلم كيف كانت زوجته تعاشره .. إنه لا يعرف ماذا يريد .. وأنا مثلا عرفت ماذا أريد « وضحك شبه ساخر وقال بمعنى » عند كل الناس آكل .. عند كل الناس أشرب .. عند كل الناس أرقد ..

وأدرك « سمير » مغزى قوله وكأنه يمزح :

ــ ألم تذق طعم الحب يا عم « حسن » ؟

فرك يديه والتقط العدسة من جديد ثم ركزها على أحد كفيه كأنه يفتش فيها على الخط .. ثم قال فى أسى لا يدرك :

ــ فى سن السادسة عشرة أحببت فتاة شقراء فى قريتى كان لها عيون أكبر من عيون الغزالة .. فى بيوت أسرة غنية اسمها أسرة « زين » والتقيت بها ذات ليلة لكنهم ضبطونى .. لا تقلق فسأقول لك .. ضبطنى « الكلاف » وضربونى دفاعا عن شرفهم .. فهربت من القرية فى اليوم التالى ..

فسأله « سمير » دون أن يفهم :

ــ والفتاة ؟!

غمغم « حسن شيحة » :

ــ ذ .. ذ .. ذبحوها ..

ـــ ذبحوها .. و لم يشعر أحد ؟!

ـــ فى الريف يمكن أن تدارى جرائم الأغنياء .. لا تشغل بالك .. فكثير من علاقات الحب بين الناس يتم بهذه الطريقة حتى ولو كانت بين ملك وملكة ..

ـــ ما لك حزين .. لا بد أن سليلة آل زين كانت عزيزة عليك ..

وضحك « حسن شيحة » فى خفوت :

ـــ ذبحوها .. دعنا من ذلك .. إن السيدة « درية » سألت عنك ..

ـــ وما الداعى ؟

ـــ جاءت سيرة الجيران فسألت عنك .. لعلها تحب أن تسأل عنهم بحكم أنهم ملاصقون لجدران بيت كانت متزوجة فيه .. آه .. لقد تغيرت ..

ـــ إلى أحسن ؟!

هز رأسه نفيا و لم تخل هزته من الأسى .. وسرح الرجلان .. أحدهما يفكر فيما فعل والآخر يفكر فيما يود أن يفعل .. وأرض الحلم كانت واحدة ..

وعندما هم « حسن شيحة » بالانصراف وقع بصره على ورقة النتيجة التى نزعها « سمير » وفيها الحكمة : فتناولها وأخذ يحملق لكى يعرف منها أوقات الصلاة .. ثم ردد الحكمة بصوت مرتفع بطىء عسير القراءة :

ـــ « محاربة .. شهوات الناس .. تبدأ بعد .. أن نفرغ من .. خنق شهواتنا » .. هل تفهم معنى هذا يا سيد « سمير » ؟!

فهز رأسه متجاهلا .

فرد « حسن شيحة » قائلا : ولا أنا .. كنت أريد أن أفهمها منك .. لأنى لم أستطع فهمها وحدى ..

١١

مضت بضعة شهور ..

ثم تلقى خطابين فى يومين متتالين : أحدهما بخط دقيق بلا إمضاء ، فيه جمل كثيرة منها :

« إن التى حملت لك الحقيبة ومشت بجوارك فى الظلام تحمل الآن ما يقسم على اثنين .. لأنه ثقيل عليها وحدها » .. الخطاب من مشغل الزهور فى ورقة رقيقة نضح الحبر على وجهها الآخر .. وقد وضع « سمير » ظهرها أمام المرآة فظهرت الكلمات المقلوبة فى الظهر معتدلة كرسالة جديدة .. فكان أمام عينيه رسالتين بخط « درية » وفى ورقة واحدة من وجهين ..

وسأل نفسه وهو يقرأ ما كتبته :

« لماذا لم تستقم حياتها مع زوجها ؟! لا بد أن يختلف إحساس الناس بالناس .. إنها شىء لا ينسى » ..

كانت لحظات تلاشيها فى إرادته تمثل أجمل صور الامتلاك .. ولم يكن قد جرب بعد ذلك الملكوت ذا الجو الرائع الذى يجعل الأسرة من أسعد الناس ..

ووجد أمامه العدسة التى يشعل بها السجاير ويكبر بها الخطوط .. ركزها على عباراتها كلمة كلمة : « حملت لك الحقيبة » .. « ومشت بجوارك » ..

« تحمل الآن » .

ثم وضع ما فى يده وحملق فى الحائط .. أمامه النتيجة والمنبه .. الزمن الصامت والزمن الناطق وحكمة فى أسفل الورقة تدعو إلى الصبر .. لكنه وجدها غير مناسبة لحاله ففى كلمات « درية » شىء غريب .. وهو — حتى إذا اعتبر ما فات نزوة — قد لا يستطيع أن يفر من آثارها .. لكنه يحس بأنه يحبها ..

ثم ذكر بعض ما قالته له : « إنها تخاف الطفل الكامن فيه .. » وإن كان يشعر فى بعض الليالى أن عذاب الطفل بالحب أشق ألف مرة من عذاب الكبار حتى ولو نسى الطفل حبه بسرعة — فليس الزمن هو الأساس فى العذاب واللذة . العبرة بالجرعة ..

وعاد فأمسك بالعدسة وركزها على الخطاب .. فلاحت تحتها كبيرة جدا كلمة « تحمل الآن » .. ولم يدر لماذا انزعج .. سأل نفسه : ماذا يصنع لو أنه أخصائى اجتماعى وجاءت إليه فتاة مثل « درية » وقصت عليه قصة شاب مثل « سمير » وكانت هذه الفتاة « الآن » ..

وعندئذ سرح .. أحس بالشوق والخوف واللهفة .. وحضرته صورة « حسن شيحة » وهو يسأل عن معنى الحكمة التى لم يفهمها .. فلم يجد فرقا بين من لم يفهم لأنه عجز وبين من فهم وتناسى ما فهم .. فالعبرة بالانتفاع لا الامتلاك ...

ثم استطرد خياله .. « ماذا لو كانت .. آه .. إن حملها حقيبتى فأل مخيف .. ما مغزى هذا لو جعلناه فألا ؟ حقيبة مملوءة تخص رجلا وتحملها امرأة ؟! .. ثم .. آه .. لا بد أن أسمع ما تقول » ..

ولم يدر « سمير » ما الدافع ؟!.. خوف أو شوق ؟! لكنه تلقى رسالة فى اليوم التالى من والده تقول له : « لا تحضر هذا الأسبوع إلى طنطا لأننا سنقضى أسبوعا فى القرية بسبب سوء صحة خالك .. وقد كتبتها إليك خوف أن تقلق إن حضرت ولم تجدنا .. وعلى كل حال يكفى أننى سأرتاح من متاعب السجن ولو أننا مسافرون فى ظروف غير طيبة » ..

وكأنما كان هذا إيحاء له بسرعة السفر .. ولاحت له كلمة « الصبر » مرة أخرى فى أسفل ورقة النتيجة فوجدها غير متسقة مع ما فى قلبه ولا مع حركة عقرب الثوانى فى المنبه أمامه ..

وفى المساء كان فى بيتهم فى طنطا .. فتح المسكن بمفتاحه ودخل فألفاه غارقا فى السكون وتوجه إلى المطبخ فوجد فيه فاكهة وجبنا .. وعندما امتدت يده قرر ألا يلمس شيئا ثم عاد فوجد فى نفسه حجة كافية عند أهله لأن يتحرك كما يريد .. فإن الخطاب لم يصل إلا متأخرا ..

الشمس قد غربت والظلام يخيم فى نداوة ربيعية ومصابيح الميدان تلمع وراء بعض الأشجار .. ولم يدر لماذا عن له أن يلقى نظرة على مسكن « درية » القديم .. نافذتها مغلقة والظلام راكد على كل شىء .. وليس هناك على رف الزرع شىء أخضر إلا الصبار .. وعادت إليه ذكريات كل لقاء عندما وقع بصرها بعد ذلك على الطائر الرمادى ذى الأجنحة الحجرية التى يريد أن يستقل بها الفضاء .. وتذكر كفها الصغيرة البيضاء وهى تلمسه ذات يوم وكانا وحيدين فى الشقة ولم تشعر هى بوحدتهما ..

لم يكن فى الشقة غبار .. رائحة النظافة لا تزال تفوح منها وخاصة من الحمام الذى رأى فيه منشفة كبيرة منشورة .. واغتسل ، أحس كأنه ولد من

جديد .. نشاط ذهنى وحيوية مشت فى كيانه .. ثم ما لبث أن اطفأ النور وأقفل باب الشقة ووقف ينظر قبل أن ينزل .. رأى الظلام فى داخل المسكن بعين جديدة ، لونا حافلا بالأسرار .. أحس قبل أن يهبط السلم كأن بالداخل شخصين يقولان كلاما يخصه منه نصفه ، كاد يسمع همسات « درية » فى الركن المعهود جنب الطائر الرمادى .. كاد يلصق أذنه بالباب وجسمه مقشعر .. « آه .. ماذا تقول ؟!. ماذا ؟! » ..

وفى وهلة قصيرة عاودته تفاصيل ما حدث .. فوثب على السلم .. ومشى وهو يحس لأول مرة بعدم حاجته إلى عيون تراه .. إلا عينين اثنتين .. ولذلك ركب أول عربة حنطور واتجه بها إلى مشغل الزهور .. ونزل على بعد منه ثم سار على قدميه حتى لاحت له اللافتة وصاحب المشغل .. واقف بحدبته عند الباب يقبض على خسة ويستل منها عرقا بعد عرق وشارباه يتلاعبان .. صاح عندما وقع بصره على « سمير » فى مرح من فوجىء بما يسعده :

— أوه .. لا بد أنك آت لتسأل عن « حسن شيحة » .. كان هنا أمس وسافر يا شيخ .. أهلا وسهلا ..

وانتبهت « درية » على ذكر الاسم .. رفعت بصرها إليه فرأى ظل أهدابها على خديها وبسمة قصيرة مع أزهار منمنمة فى المفرش الصغير .. ثم غناء لصبية توقف فى الحال .. ثم كلمات غير ذات مدلول بين الشاب والرجل سار بعدها « سمير » إلى حيث وقف ينتظر خروجها .. أما هى فلم يعد شىء أمامها واضحا منذ هذه اللحظة . شعرت كأنها تخط فى كتاب حظها آخر صفحاته .. ثم يميل إلى القىء .. اضطراب جعل تعبير الفم أليما وجعل الحلم ظلالا حول العينين وقالت فى نفسها : « لقد جاء » ..

ولم تكن قادرة على أن تصل إلى أعماق ما بعد هذا فهى وإن كانت تنسج مأساتها بنفسها مضربة على التفكير فى النهاية فإنها تحس بنوع من اختيار الذنب .. وفى أعمق أعماقها فكرة من أحرق بيتا ليخفى حادث سرقة .. كأنما تريد مما تنسجه الآن أن تنسى به ما فات فضلا على أن « سمير » أهم « ورقة » بين كفيها تمسك بها وهى تلاعب القدر ..

وعندما كان باب المشغل يستقر على الأرض مقفلا والماكينات تبدو فى سكون الظلام مثل حيوانات صغيرة لا تعرق قد أجهدها العمل فاستسلمت للنوم ـــ فى هذه اللحظة كان « سمير » و « درية » فى عربة فى طريقهما إلى البيت .. ولم تكن « درية » تقدر أنه خال فقد قال لها إن شيئا هاما بانتظارها هناك .. وعندما همت بالاعتراض على أنها لا تحتمل أن ترى بيتها الأول كان يدفعها نحو العربة .. ولم يكن يغيب عن ذهنها الذى لم تشأ أن تعمله احتمال خلو البيت من الناس .. لكن .. إنها حالة استعداد للخطأ تصاب بها النفوس المأزومة .. ونفسها المحبة أيضا نفسها الظمأى تشرب والعينان مغمضتان .. وتوقع النشوة يجعلنا نغمض العين .. بل حتى مجرد ذكرى سعيدة .. تنسدل الأجفان .. كأن الرؤية الذهنية هى العين الأولى للمسرات .

وإلى جانبها فى العربة كانت أسنانه تلمع عندما يبتسم وكانت ترى وجهه فى نور المصابيح أحيانا .. وعطرها يفوح فى هذا المكان المفتوح فيملأ نفسه ..

وإلى جانبه لا تدرى لماذا ذكرت الحاج يحيى .. الرجل الكبير القلب الذى يخزن لها أثاثها عنده فى إحدى الحجرات .. لقد لقيها أمس البارح فقط وقال

لها وهو يضغط على كفها ضغطة اهتمام وسلام : « لا تتركى نفسك هكذا يا « درية » .. » فهمت قصده فهو يريدها أن تتصالح أو تتزوج : « ثم إنك .. ها ها » .. وضحك ثم قطع ضحكته .. إنه يريد أن يخبرها بمعرفته بحملها : « والكنبة الكبيرة فى طاقم الجلوس .. أخرجنا من بطنها توأمين سمينين .. أنا وخالتك هند .. ها ها » وقطع ضحكته ..

وعند ذلك فتحت حقيبة يدها لتأخذ منديلها الصغير .. شبه دمعة .. ورائحة فل قديمة جدا وهى تقول فى نفسها : « الفيران تأكل الأثاث المخزون وتتخذ من بطنه سكنا » ..

ولمس « سمير » يدها فعادت إليه .. كان على وشك أن يأمر العربة بالوقوف على بعد من الباب .. وأشار إليها أن تسبقه وفعلت ..

كان السلم ظلاما .. صعدت متوارية فى نفسها .. يشملها حلم .. لم تدر أنها حملت فوق طاقتها إلا الآن .. وهى الآن توازى النافذة ذات الزجاج الملون التى ألقت على قدميها ذات يوم بركة حمراء من الضوء .. ولحقها « سمير » .. أمسك ذراعها فأحست بما هو فى انتظارها . البسطات طويلة صامتة .. وحديث عائلى تأتى حواشيه من شقة عليا كما يحمل الهواء رشاش الينبوع .. مفتاح يدور ومصباح يرشد إلى الطريق وليس هناك حديث .. وفى الحجرة التى التقت به فيها أول مرة شعرا معا وفجأة كأن شخصا ثالثا هو المسئول عن وجودهما فى هذا المكان كأنما سيقا إليه .. همست بخوف شديد :

ـــ ماذا فعلت ؟! لا أستطيع أن ..

رد جادا وكأنها أخافته :

ــ فلنغادره إن شئت .. لكن إنهم ليسوا فى المدينة .. علينا أن نتكلم .. إلى ..

كانت تنظر بخوف نحو الشباك المقفل الذى طالما أطلت منه على شقتها .. وعلى مرمى بصرها لو أنها فتحته خشبة المسرح التى ذرفت عليها الدموع وأدت أفظع دور .. وحضرتها فى هذه اللحظة صورة لعينين راغبتين لزوج فى نصف وعيه يجعل من لغة الحسن لغة سباب وتأنيب .. ولم تلبث « درية » أن دخلت فى دوامة من الروائح .. بصل وبنزين وقطن طبى وعطر زيتى وفل قديم وعرق .. وضاقت أنفاسها فبكت « هذا فوق الطاقة » ..

شعر « سمير » بالربكة .. أحس أنه أخطأ .. كان همه أولا وقبل أى شىء أن يعيد السكون إلى نفسها .. أخذ منديلها من كفها وبدأ يمسح عينيها ..

وعندما امتزج نفسها ــ بعد تنهد ــ بنفسه تصورا إمكان وجود روح واحدة فى أجسام كثيرة .. وتذكر « حسن شيحة » ذات يوم وهو فى هذا المنزل حين قال له مداعبا : إنه كان هو وعم « خليل » والبقر والموقد وكلب الحراسة وسلة الخبز والنبوت وعدة الشاى يمثلون عائلة يحب بعضها بعضا إلى درجة لا توصف ..

لكن بعض أفراد هذه العائلة يعبر عن الحب بالكلام وبعضها يعبر عنه بالعمل .. ثم انطلقت ضحكة من « حسن شيحة » ..

شعر « سمير » أنه وهى شىء واحد .. ليس له علاقة بما فات .. كأن « الماضى » يختفى عند الضرورة لكى يأخذ « الحاضر » دوره إذ هو يمثل الحياة الحية الطازجة قبل أن يولد « المستقبل » .. وعندما يلح الماضى بفضوله

ليزحزح الحاضر عن موقعه يكون الحاضر آنذاك قد أخذ حقه وأدى دوره وأصبح هو الآخر ماضيا ..

لا شيء فى الحياة أقوى من لحظة الحاضر .. تلك التى عادت إلى « درية » فيها ابتسامتها وهى تعيد المنديل إلى حقيبة يدها .. ولمح « سمير » مشطها فخطفه ثم أمسكه يعبث به .. كان أحمر فى لون اللهب .. فأخذ يمرر إبهامه على أسنانه ليحدث صوتا وهو ينظر إلى المشط ويقول :

ــ خطابك أخافنى ..

ــ لماذا ؟

ــ لأن فيه .. تقولين : « بأننى أحمل .. آ .. » ..

أشارت إليه بكفها وهى تنصب نصفها الأعلى جالسة .. كمن تمد قامتها أو تعالج فى ظهرها ألما بهذه الحركة .. وعادت إلى فمها علامات البكاء والابتسام معا ثم برقت عيناها بدموع غزيرة ..

ــ ماذا بك يا « درية » ؟

ــ أنا لا أطلب من أحد شيئا .. « وتنهدت » هل تظن أننى أستسلمت حتى أصبح هذا عادة لى ؟ أبدا .. كل ما فى الأمر أننى ..

وأطرقت .. كانت تريد أن تقول إن غايتها أن تشعر أنها محسوبة على إنسان . وأضربت عن الكلام حتى دنا منها .. وهمس فى أذنها باسمها ثم جعل يعبث فى شعرها بمشطها فردت يده برفق ثم قالت له وهى تنظر نحو النافذة :

ــ يقولون إن الصراط المستقيم يقع هكذا بين الجنة والنار .. وهذا الممر الذى يفصل البيتين هو الصراط .. لكن الجنة ..

ـــ أين هى ؟

ـــ هل من الممكن أن نتسلق أسوارها أو نعبر إليها بجواز مزور .. على كل حال لا يهمنى أن تكون الآن الطفل أو تكون الرجل .. كل ما يهمنى هو أن أقول لك إنك التقيت بعذراء يوم التقيت بى فى المرة السابقة ..

بدت الدهشة عليه وهتف « عذراء » .. وجعل يمر بإبهامه شاردا على أسنان المشط وهو ناظر نحو بيتها .. وفى هذه الوهلة رأت صورة جديدة لأشياء تكرهها لكنها لا تكره أن تنظر إليها .. ومن خلال ابتسامتها التى تولد خرجت ضحكة صغيرة :

ـــ يجب أن تفهم ما يقال يا أستاذ « سمير » ..

هز رأسه وسارع يقول :

ـــ فهمت .. فقد تبقى الروح عذراء حتى آخر العمر ..

أمسكت بمعصمه وهى جالسة جنبه على الكنبة .. وسألت بجد ظاهر :

ـــ من منا مكلف أن يعطى الآخر على حساب نفسه ؟! لا ترد .. فإنى أخاف أن تكذب ولست أدرى لماذا أنا حريصة على أن أجعلك فى المواقف التى تكون فيها صادقا .. ربما كنت خائفة على نفسى عن طريق خوفى عليك .. فاحذر أن تعدنى بشىء لكن .. قل لى ..

همس :

ـــ أقول لك فيما بعد .. تعالى إلى .. فإنى عاجز عن الحديث الآن .. تعالى إلى ..

* * *



انى عاجز عن الحديث الآن ..

هو الآن يمشط لها شعرها بمشطها ليعيد إليه نظامه وهى مطرقة تفكر وهو يشعر بسعادة ممزوجة بالخوف .. وتمنى لو أن أمه وأباه كانا لا يعرفانها من قبل ؟! لكنه مالبث أن جازف وقال :

ـــ درية ..

ـــ نعم ..

ـــ كنت أحلم أن تلحق بى من المدينة فتاة أحبها لتعيش معى فى الريف حيث أفضل أن يكون عملى هناك ..

هزت رأسها مستفهمة .. ثم سألت :

ـــ وماذا أيضا ؟

ـــ ستكونين أنت هذه الفتاة ..

ردت بدهشة بالغت فيها :

ـــ أنا ؟!

ـــ نعم .. وماذا فى ذلك ؟.. إننى أعرف .. أقصد . إنه بعد أن .. يعنى عندما .. لا أدرى ماذا أقول ..

وضعت كفها على كتفه :

ـــ من الممكن أن أقول أنا .. عندما أضع الطفل الذى فى بطنى تصبح الحياة أكثر سهولة ..

ـــ أ .. أ .. الطفل ؟!

أومأت برأسها إيجابا .. ثلاث مرات متلاحقات .. لم يكن على وجهها مبالاة كأنها بطريق غير واضح أحست بلذة الثأر لليلة كانت فيها ذليلة وجها لوجه أمام رجل .. وها هى ذى الآن ترى أمامها رجلا خائفا ..

فى بيته ويبدو عليه الذعر .. وفوق رأسيهما على الحائط صورة لهذا الشاب نفسه على غاية من المرح والقوة .. وهبطت ظلال من التعاسة على وجه « سمير » جعلتها تشعر نحوه برثاء واستصغار .. وتذكرت ذلك الذى كان يمشى إلى جوارها فى المرة السابقة .. و لم تلبث أن شعرت بنفسها « مجردة » بين غمار الحوادث .. شعرت بكيانها وحدها .. وهى على الرغم من أنها حقيقة لا تخاف المستقبل كثيرا لأنها أهدرته فإنها تتلذذ الآن بتفحص الحاضر ..

همست تقول فى طمأنينة من ينهى خبرا مفروغا من أمره بلهجة مشوبة بالتهكم :

ـــ آ .. الطفل .. عندما .. تريق ماء على أصيص لا زرع فيه فإن الحشائش تنبت .. طبيعة .. هل فى الطبيعة شيء غريب ؟

ـــ أخذ يمرر إبهامه على أسنان المشط بحركة سريعه وهو يسأل شاردا ..

ـــ لست أفهم قصدك ..

نظرت إلى الصورة على الحائط وهى مولية ظهرها إليه .. ثم وجهت خطابها إلى ذلك الوجه الباسم الشجاع النابض بالحياة والحب فى الصورة ..

ـــ أنت .. وليس الشخص الذى ورائى .. أنت الذى سقيت الأصيص .. قل له هذا .. فأنت شجاع ..

وضحكت فأحست كأنما فتح لها الضحك بابا من الاطمئنان والاندماج فى الدور ، وكأنما كان أيضا رد فعل لدموع أريقت أو برقية احتجاج موقوفة أرادت إرسالها إلى غرفة زفافها القريبة التى يقف فيها الآن على أربع سرير من الحديد أسود القوائم .. ثم استطردت تقول للصورة :

— لقد كان شبهك تماما يوم رأيته ، لذلك أعجبنى .. روحه تشبه روحك .. أمه قالت لى إنه يحلم بتغيير الدنيا « ووسوست بضحكة » ولذلك أضاف إلى سكانها واحدا .

أحس « سمير » أنه يذوب فماذا تعنى مهمته فى الحياة إن كان يريد تغييرها كما تقول الآن .. ودفاعا عن نفسه قدر أنه مغشوش وأن الحقيقة تعرفها « درية » وحدها ، لذلك أحس بأن كل ميزة فيه قد خبت كما تخبو النار فى انطفاء سريع .. حتى بريق عينيه .. ولما ألحت « درية » فى ترديد بصرها بينه وبين الصورة أخذ ينظر إلى الصورة بلا إرادة ، فشعر لوقت طويل أنها الإنسان غيره .. لماذا أحس أنه جرد من كل أسلحته .. وأطرق كجندى من فلول يمرر إبهامه على المشط فى تكاسل .. و لم تدر لماذا أحست نحوه بعطف فابتسمت له : « طفل يخاف من طفل » وسحبت مشطها من يده برفق شديد كطفل نام ولعبته فى حضنه .. أمه لا تريد أن توقظه .. لكنه .. استيقظ .. رد يده إليه و لم يعطها ما تطلب وكأنما عادت إليه قوة كانت غائبة عنه فلم ير الاعتبار الأول فى ميزان الرجولة أنها كانت فى أحضانه فهناك الآن اعتبارات أقوى .. حملق إليها وقال جادا :

— هل تظنين أنك أخفتنى بما تقولين ؟

— نعم .. لأن .. الحب شيء مخيف ..

أطرق وتذكر الكره — الحب والكره طرفا الكماشة الأزلية التى يقع بينهما كل قلب .. يتبارزان .. ويلد كل منهما الآخر ويتنكر كل منهما فى ثياب أخيه ويقتل الكره باسم الحب .. ويقتل الحب باسم الكره .. وبعد وقوع الحادثة

يكشف القاتل عن شخصيته .. ورفع إليها رأسها وقال :

ـــ لكنني لا أخاف من الحب ..

سألت ببرود وهى تهز ساقها :

ـــ الذى عثرت عليه أو الذى تبحث عنه ؟!

ـــ ...

ثم لمحت شيئا قريبا على إحدى المناضد .. لقفته بسرعة ووضعته على عينيه هو وهى تبتسم .. كان نظارته وقالت له :

ـــ اختبئ كما سبق لك .. وهات المشط فإنى أريد أن أنصرف فقد تأخرت .. طفل ليس مشكلة .. خصوصا إذا كان أبوه طفلا ..

واتجهت إلى الباب وهى تلقى نظرة إلى صورته المعلقة ثم نظرة إلى وجهه الكابى فى لون التراب .. أمسك زندها يمنعها عن الخروج فهمست وعيناها تنظران إلى لا شىء ..

ـــ إذا كنت قهرتنى لأدخل فيمكن أن تقهرنى لأبقى .. دعنى ..

فتخاذل ..

* * *

كانت وهى تهبط السلم تشعر بغربة من لفظه وطنه لعلها كانت متوهمة أن ترى شيئا ليس فى تقديرها .. ثم إنها فى قرارة نفسها تحس كأنما لو طلب منها حلا لأوحت له بالحل ..

ولاح لها ميدان السجن خاليا . ذوائب أشجاره تتمايل كأشباح سكرى .. شهقت بالبكاء . ها هى ذى قد اقترفت بعد أن عوقبت مقدما .. ها هى ذى الآن مثل أم وجدت قبر ابنها . وسارت فى الميدان نصف مغمضة ورمت

بنفسها فى أول عربة قابلتها عند طرفه وجلست فى ظلامها تستمع إلى قعقعة العجلات ووقع السياط . وخيل إليها فى جلستها أن الشوط الأول من مأساتها قد انتهى بإحكام وعليها منذ الصباح التالى أن تدير ماكينتها منتظرة الخطوة التالية ..

أما « سمير » فقد سافر جريح النفس على غير ما كان يتوقع بعد أن التقط للحب صورة غريبة عليه .. وأهم ما فى الصورة أن كلا الطرفين يحس أنه ضحية خداع .. والحب إذا رسم خطاه لم يعد حبا .. لكنه وهو فى القاهرة جعل يتصور المأساة من جديد .. وسأل نفسه عما عسى أن يفعل .. هذا الذى حلم بأنه سيغير الدنيا عاجز تمام العجز عن تغيير واجهة داره .. تغيير ما تحت قدميه .. فكاد يوقن — وعقرب الثوانى يجرى محموما — أن ما يدور برأسه إن هو إلا حلم شائع يراود كل شاب ..

وسمع تصفيقا فى الحارة وبوقا وهتافا وصياح أولاد : « هذا هو الحاوى .. ألعابه كانت تسحرنى قديما .. شق بطن ابنه ولفقها بعد أن سال منه الدم .. لكن ذلك لا يلذ لى الآن إلا فى محاولة أن أكشف عن الخدعة .. أما العمل ذاته فقد كبرت فأصبحت لا أومن به » ..

وارتفع من بعيد صوت تقليدى يقول : « جلا جلا » فعاد « سمير » إلى المسألة بعد أن حاد عنها : « هل يؤمن هذا الرجل بما يفعل .. كارثة » .. يحاول من لا يؤمن بشىء أن يدفعه إلى قلوب الناس .. « أعجز من طفل يقذف بالكرة إلى أعلى سلة .. « وتبسم » وذلك الحاوى الذى يرى الدم ويصرخ مستغيثا بقوة أولياء الله أن يعيدوا الحياة إلى ابنه .. إنه يشد انتباه الأطفال

وفضول الكبار .. » .. ثم استطرد يفكر وهو يشعل سيجارته بالعدسة من أشعة الشمس واقفا إلى جوار النافذة .

« لو تصورنا أن هذا الرجل يؤمن إيمانا قلبيا بما يفعل فهل يصل إلى حدود المعجزات ؟!.. » ..

كان يسأل نفسه هذا السؤال والبقعة الماسية من الأشعة متجمعة على طرف السيجارة .. وانبعث الدخان . خيطان رقيقان رشيقان يحملان رائحة التبغ .. وتذكر ما يعانيه من أرق منذ الليلة التى قضاها فى طنطا .. وتلك الكلمات التى وجهتها « درية » إلى صورته وهو حاضر .. كادت الغيرة تأكله عندما تخيل أن « صورة منه » دبت فيها الحياة وصارت أبرع منه حتى نالت اهتمام من قال لها إنه أحبها بعد الفراغ من قصة حب .. لكنه فكر ثم تبسم .. وحضرته صورة لأدوات فعالة بسيطة توجد فى كل يد .. ليست حكر الشخص ولا أمه .. بعضها على قارعة الطريق وبعضها على يد الأطفال : « مغزل » .. طالما رأى أطفالا وصبيانا من الفلاحين يغزلون به القطن طول الموسم ليصنعوا من خيوطه أحزمة أو مقاليع .. ثم .. « رداء » على كل ريفى وكل فقير .. ثم .. « عنز » يرتفع صوتها بين الحقول فى كل أرض .. كائنا لا يشعر به إنسان ! حتى مقاييس الجمال ربما فرت منه ..

وفكر « سمير » : « لكن الأدوات فى يد رجل مثل غاندى .. غيرت الدنيا » ..

هز رأسه فى يأس : « فمن داخل الرجل يقع الخلود لذكرى هذه الأشياء » ..

وارتفع التصفيق والتهليل وتلاشت فيها كلمات « جلا جلا » وشعر « سمير » أنه الآن مثل واقف فى مفترق طرق إذا أراد أن يؤثر فى مجتمعه عن طريق شخصه لا عن طريق وظيفته .. فالوظيفة ليست بيئة طبيعية للرجل فقد يعيش غريبا عنها ..

رأى نفسه فى يوم يحمل طفلا .. ورأى نفسه مرة أخرى وهو يدفنه ومرة ثالثة وهو يبحث عن طفل ضال ومعه رجل ينادى : « يا أولاد الحلال » ..

واستيقظ خائفا .. وتمنى لو أن أمه وأباه لا يعرفانها .. إذن لرحل بها إلى أى مكان .. ثم تمنى لو أنها كتبت إليه .. لكن .. كل شىء صامت .. إنه يشعر بالصمت يخيم عليه جدا .. حتى الأفكار تدور فى رأسه حائرة ضعيفة مثل الفقاقيع .. نسمة لا لمسة تطفئها .. والقاهرة صامتة .. وضحكات زملائه فى المسكن كأنها فم يفتح ولا يخرج صوتا .. ليس هناك حس للمرح .. ثم تمنى لو أنه سمع عن وفاتها بسبب حادثة .. حزن طويل أو قصير .. وينقضى الأمر .. لكنه عاد فتذكر أنه بذلك ظلمها ثم سأل نفسه : « ألم يكن لها إرادة ؟ » .. وأجاب عن سؤاله : إنها لم تلمه على أنه استدرجها لكنها لامته على أنه .. لم يتحمل بينه وبين نفسه نتيجة ذلك .. ثم إنها لم تهدده .. لم تفعل شيئا من هذا أبدا .. بل خرجت منطوية وإن لمعت عيناها ببريق غامض ..

وتذكر إرادتها .. شعر بأن الإرادة شىء قوى .. مخيف .. حتى ولو كان فى حشرة .. أما هو فما موقفه ؟! تلذذ ثم مضى ؟! وكان يشعر بالحب وقتئذ .. كأنه نسى أن الرغبة هى الصورة الإيجابية الخادعة لما

يسمى الحب .. وهل رغبة القط فى الفأر وهى من أشهر الرغبات تسمى حبا ..

وكل من لاقى « سمير » يقول له : « لا بأس عليك » .. وكذلك أخذت نوافذ المسرات الشخصية تقفل فى وجهه واحدة بعد واحدة .. إنه فى خوف .. نوع غير الذى عانته « درية » قبلا .. أهم مظاهره أنه لن يستطيع أن يخدع مثل ما يخدع هذا الحاوى .. وعندئذ شعر أن شيئا هاما ينقصه .. هو أن تربى فيه الفروع الصغيرة ذات الورق الأخضر التى تُكوّن مجتمعةً شجرة الفضائل ، فمع تمارين تقوية الفخذين التى يمارسها . والزفير والشهيق أيضا ممكن أن تكون أشياء أخرى .. وبدلا من أن يكون مثل ابن الحاوى الذى يشارك فى الخدع ويمثل الموتى بمهارة ثعلب ـــ ممكن أن يكون « مغزلا ، أو حتى عنزا » ..

وبعث أبوه إليه يقول له : « إننا نود أن نراك ولو أن الامتحان قريب ، لكنه لم يرد عليهم .. وأخذت الأم نوبة شديدة من المخاوف فأوصت « حسن شيحة » أن يمر عليه إذا ما كان فى القاهرة ..

وعندما التقيا وسأله الرجل عن سبب سوء صحته عزا الشاب ذلك إلى مجهود الامتحانات .. ثم تلطف فى السؤال عن « درية » فقال له « حسن شيحة » :

ـــ عما قريب ستعلم عنها خبرا سارا ..

ـــ ستتزوج ؟! مثلا ..

ـــ لا .. بل هو الخطوة الأولى للزواج ..

ـــ ومتى تنتهى هذه الخطوة ؟!

ضحك « حسن شيحة » محرجا :

ــ علم ذلك عند الله ..

ــ وهل هى سعيدة ؟!

ــ طبيعى .:.

هز رأسه مسلما بكل الأفكار .. وفى حين أن « درية » كانت تنتظر منه خطابا أو لقاء أو كلمة وهو فى حاله تلك قد فقد ثقته فى نفسه .. وكلما تذكر قوى أبيه رأى فيها شيئا سخيفا .. غير أنه ما لبث أن حسده إذ رآه يمثل وجها واحدا للشخصية .. سجان فى كل ما يفعل .. لا يمنع الحرية عن النزلاء بمقتضى اللوائح بل بطبيعته الشخصية .. كأنما نقش على سلاحه القانون ..

وتصوره « سمير » أخصائيا اجتماعيا .. يملك من خصائص وظيفته القديمة .. عندئذ فإن الأمر لن يختلف .. سينبع من داخله الإصلاح كما نبع الإفساد من داخله .. المهم أن يكون صادقا .. « أليس ذلك خيرا من اضطراب الألوان ؟ » ..

وفى غمار الامتحانات كانت مشكلات « سمير » النفسية فى الصف الثانى من اهتماماته ..

* * *

أما « درية » فقد كان كل من حولها فى فترة انتظار .. حتى تضع حملها وهى شخصيا ترى الآن أن الحياة لا يمكن أن تعاش هكذا بهذه الطريقة ، فمنذ ليلة زفافها وهى ترى أن الغش كان هو الطريق الوحيد للعيش .. وعاشت فى فترة تأنيب « من الضمير ؟! » على أنها لم تغش ..

بل وتبادلت هى وأمها هذا التأنيب كأنما الناس قد أخذوا يتواصون بالغش .. ثم قضت فى بيت زوجها فترة كانت مبنية على النفاق أو الخضوع أو المداراة .. أوضاع أشاعها الناس لكى يعيشوا .. وعندما رجحت كفتها انقضت عليه وهجرت بيته وهى ترفع راية الغش .. وكملت المأساة بلقاء « سمير » الذى غش ويرفض أن يغشه الناس ..

ونظرت إلى بطنها المكور وتبسمت : « شهادة ميلاد يجب أن تختمها الأم بدل مكتب الصحة بخاتم الصدق لا خاتم الدولة » ..

وأدارت الماكينة فأزت .. تطرز عصافير أفواهها مفتوحة كأنها تزقزق ..

ثم تذكرت شيئا قررت أن تذهب وتراه فى فترة الغداء كما يحن الأسرى إلى معسكر التعذيب ..

ذهبت إلى السيدة « زينات » بأى سبب .. لذ لها أن تتألم .. كنموذج من الناس يشعر أن الناس يحرقونه ببطء فهو يساعد فى إحراق نفسه ليتخلص .. ويشعر أن العذاب من داخله هو فيه تذلل الصوفى أما عذاب الناس فيه فإنه يثير أساه ..

ومع واحد من أطفال السيدة « زينات » أبدت رغبة فى أن تلقى نظرة من أعلى على مدينة طنطا .. وأخذت تصعد السلم والطفل وراءها يثرثر حتى إذا ما وصلت إلى الطابق الأخير حيث بدأت مأساتها نظرت إلى الباب الموصد وحملقت فى بطاقة مثبتة عليه تحمل اسم أحد ضباط الشرطة فتبسمت ..

وبدت لها القباب والسطوح والغسيل والنوافذ التى لعبت فى حياتها دورا كذكريات حديثة كأن لم يمض على مرورها عام .. فالملابس الداخلية

للسيدات على هذا البلكون والسرير فى حجرة النوم وتلك المرأة التى انحنت فتكورت أردافها وهذا الفناء ـــ كل هذا كان الجرعة المجهولة التى شربها من سقاها الذل . ولم تستطع أن تحمل راية الغش فتعذبت ..

خيل إليها قبل أن تهبط من أعلى أن تلك المدينة الملفوفة فى غلالة ذهبية غريبة عنها .. هى وافدة إليها أو راحلة منها .. الضجيج فى آخر ذبذباته فى الطبقات العليا .. والطير والحمام .. وذوائب النخل وهى تحت مستوى النظر .. ورائحة الندى التى تسبق الشتاء ـــ كل هذا ألقى إلى قلبها بكلمة لم تفهم ترجمتها بعد ..

وفى المساء كان عندها « حسن شيحة » فى بيت أبيها يحمل إليهم سبتا من الزبد وقفصا من الدجاج .. تشعر بأنه حزين .. حزنه من ذلك الذى يوحي بأنه يفكر .. ولكل نفس مشكلة .. لكنه كان بفطرته قادرا على أن يجعل من هزائمه مادة لإضحاك نفسه .. وبهذا تفقد الأحزان خطورتها ..

جعل يحدثها عن نعمة الله عليه وهو شارد .. كفاحه مثل كفاح الطير حين تبنى عشها والريح تهب .. تفرش لنفسها ريشها .. هكذا جمع « حسن شيحة » كل ما يملك .. وهو ينظر إلى الحرام والحلال من ثقب الإبرة الذى يسيل منه رزقه إليه .. لذلك فهو يرى أن ماله كله حلال لا غبار عليه والله أعلم ..

ـــ تصورى يا ست .. رجل يرزقه الله من ثقب أبرة .. طريق معرض للانسداد حتى بالرزق نفسه لو زاد مقداره .. « وضحك » فأجابت مهمومة :

ـــ نعم الله لا تحصى .. لو عرفت ..

كانت « درية » وهى تقول هذا تتذكر ما تعانيه .. فتاة تتمنى أن يصدقها الناس .. لم تر على وجه رجل منهم انطباعات الطمأنينة المشهورة المنيرة التى تلقى بها على الوجوه كلمة الثقة .. وضمن هؤلاء الناس أمها وأبوها و « سمير » إلا فى ساعات قلائل .. ولذلك فإن الاطمئنان البليد حتى على وجوه التماسيح كان يعجبها ، وكان ضروريا أن تبحث عن الشرف بطريق غير شريف فلجأت أخيرا إلى الغش الذى تلاومت عليه هى وأمها .. وهى الآن تحس أن الجنين امتداد سيئ للماضى الذى تكرهه .. وكثير من الحب الذى عجز عن قتله الرجال والناس قتله جنين .. قال « حسن شيحة » ورائحة النعناع تفوح من الشاى الذى يشربه :

ـــ لو طاوعتنى يا ست « درية » لعشنا أعظم عيشة ؟!

رفعت حاجبيها وتلفتت فى الحجرة الخالية ووطنت نفسها على أن تسمع شيئا ظريفا .. هزت رأسها مستفهمة فقال لها وهو يخافت بصوته :

ـــ كل مالى وجهدى وعرقى سيكون لنا ..

ـــ وكيف ..

ـــ محل جديد وماكينات أشتريها لك .. عليك العمل والإدارة وعلى الباقى ..

ـــ أنت تعيش فى دفتر الحساب يا سيد « حسن » ..

فأشار بيده وكأنه لم يسمع وتلونت نبراته حتى شعرت « درية » أنه ارتفع عن نفسه :

ـــ الولد « وأشار إلى بطنها » يأخذه أبوه .. وأنت تأخذين ما تشائين من

الدنيا ..

وأسبل أهدابه .. بدا فى لحظه من تلك اللحظات التى تكون النفس الإنسانية فيها مستعدة للتلبية .. فى حالة حركة موقوفة بالنسبة لمن تحبهم .. فلو أنها طلبت منه — وهو يتنهد الآن — أن يفعل بسلامة ما فعله ذلك الشاب فى أخته حبيبة الصياد لاستجاب .. أو لو طلبت منه أن يتبنى من فى بطنها لقبل .. أو لو طلبت منه ما جمعه طول عمره من ثقب الإبرة الإلهى لأعطى .. أحست أن قلبها يخفق .. نظرت إليه نظره لم تخل من عطف .. فلو أنها كانت معه وهو فى آخر لحظات حياته .. شعرت أنها تريد أن تستخفى من نفسها كما فعل « سمير » ذات ليلة .. لكن ذلك الشعور لم يلبث سوى وهلة وانصرف .. مضى مخذولا .. فقد تشبعت .. حتى حوّلها إحساسها إلى فتاة جديدة تكاد تكون غريبة عنها .. وكما نرى وجوهنا فى المرايا أحيانا فنحاول أن نعيدها إلى الصورة التى ألفناها فإننا كذلك نرى نفوسنا كذلك .. وفى هذا الوضع كانت « درية » .. وفجأة صممت على شىء .. على أن تخاطر فتعز نفسها وتذل الآخرين ولو من وجهة نظرها هى .. وربما استطاعت أن تسترد نفسها .. حقيقة إن استرداد النفس أشق ما يعمل .. لكن الأسر لا يدوم إذ ليس هو الصورة الطبيعية للحياة وإلا لعشنا نرضع أمهاتنا ..

— يا سيد حسن ..

بهره النداء .. فقد أضافت « درية » بلهجتها إلى اسم « حسن شيحة » شيئا جديدا .. أسماؤنا التى نسمعها باستمرار قد تلحظها آذاننا وهى أكثر بهجة ..



رجل يرزقه الله من ثقب ابرة ..

وشعر « حسن شيحة » كأنما رأى صورة جديدة له فى ملابس فارس شاب .. كاد يتوه عن نفسه .. إذ عاش يرى طيف الإله ــ مخدوعا ــ من خلال رقصات دخان البخور عند الصنم .. الحب .. ذلك الذى لم يستطع أن يجاهر به نفسه .. خبأه فى صدره كأنه غريب عنه .. كأنه صدر رجل آخر .. وربما مال « حسن شيحة » لـ « سمير » لأنه أحبها .. ربما كان هذا غاية ما يصل إليه الناس من « الإخلاص » أو الحرمان أو الغفلة ..

وهمس « حسن شيحة » رادا :

ــ نعم يا ستى ..

ــ لى خدمة عندك ربما كانت أهم ما أطلبه منك ..

ــ أمرك ..

ــ أعرف أنك تتردد كثيرا على ..

ــ نعم نعم ..

ورد باهتمام وخوف وإقدام ربما لم يكن من طبعه .. فقالت :

ــ غدا الجمعة .. أليس كذلك ؟! سأنصرف فى وقت مبكر من عملى وألتقى بك هناك ..

* * *

والليل يخيم على المدينة .. وفى جو الشارع الذى يعبرانه فى العربة رائحة فواكه الشتاء مع زوبعة تدور بأوراق من كل نوع .. والساعة فى حدود العاشرة .. وفى السماء سحاب يمسك دموعه .. بانتظار لمسة من الطبيعة ليبكى .. وفى العربة « درية » و « حسن شيحة » كل فى

ناحيته تقريبا .. وقع حوافر الحصان مثل نقرات الدف المعدنى واستسلمت « درية » لعدها .. حتى أفاقت على صوت « حسن شيحة » وهو يتنحنح ثم يقول :

— خايف ..

ضحكت فى عدم مبالاة كأنها تشجعه .. ثم سألته :

— هل الخطابات معك ؟!

— نعم .. معى ..

— هل أنت محتاج إلى أن أقول لك ما قلته من قبل ؟

هز رأسه نفيا .. وأحست « درية » أنه يغالب بكاء .. عندئذ مدت كفها وأمسكت كفه ودنت قليلا منه ثم مدت يدها الأخرى وجعلت كفه بين كفيها ثم ربتتها وخلتها .. فى هذه اللحظة لم يتمن حسن شيحة أكثر مما حدث .. كأن النفس الإنسانية فى بعض الأحيان تحدد موقفها بالضبط فلا تخطىء بصرف النظر عن ماضيها أو حاضرها .. وعند نهاية شارع معين أمرت العربة بالوقوف ونزل الاثنان ولم يلبثا أن دلفا إلى بيت لا يحمل إلا لافتة واحدة لكن ليس فيه أنوار تشع فى الخارج .. ولم يك السلم واضح المدخل فأشعل هو عود ثقاب رأت « درية » على نوره المهتز أشياء مكدسة تحت السلم كأنها بالات من قماش وبينها تمثال رومى لامرأة رقد مكسورًا وزهرية كبيرة من الرخام إلى جواره .. مثل بقايا قصر قديم ..

ولم يسمحا لآذانهما أن تسمع وقع أقدامهما .. كانا يخالسان الخطو . حتى إذا ما وصلا إلى الدور الأول وفيه شقة واحدة نقر « حسن شيحة »

بابها نقرات أحست « درية » أنها تحمل كلمة السر .. ولم يسمع في الداخل وقع خطوات ثم ما لبث الباب أن انفتح كأنما من تلقاء نفسه .

ولاح فى الظلام النسبى — إذ كان هناك مصباح داخلى — لـ « درية » وجه شابة فى الثلاثين .. أول شىء جذب نظرها فيها أنها ذات رأس كبير جدا مما جعل « درية » ترجح إنها وضعت فى ولادة عسرة .. وساعداها قويان وصدرها نام كثيرا ..

وفى الداخل صوت وابور جاز .. وروائح من تلك التى يغلب انتشارها فى المستشفيات .. وأومأت الشابة برأسها الكبير إليهما فدخلا إلى احدى الحجرات وأقفلت الباب بعناية ..

أصوات معدنية تنبعث من الحجرة الداخلة وحركة سريعة دائبة من الشابة .. وفى النور غير الزاهى نظرت « درية » إلى « حسن شيحة » وقالت وهى تبتسم مغالبة دمعها :

— من كان يظن .. يا سيد حسن .. أن وجهك ربما يكون آخر وجه تقع عليه عينى ؟!

انكب على يديها لثما وهو يبكى وهى تستردهما منه ثم رأت أنه من التعاطف الضرورى أن تدعه يقبل يدها كما يشاء ..

— لا تقولى هذا .. إننى خائف .. لكنها ذات مهارة .. لم يحدث أبدا منها حادث سيئ .. إنها تساعد الطبيب فى عملياته دائما .. وهذه الأشياء تعمل من ورائه .. سيسترنا الله .. ليتنى أقوم بذلك بدلا منك .. آه يا ستى ..

ودخلت الشابة ذات الرأس الكبير على آهاتها ونادتها بعينيها وإشارة من يدها ورأسها : « تعالى » ونهضت « درية » .. ولمس « حسن شيحة » شعرها وخدها مربتا عليها قبل ان تخرج ثم بقى حيث هو :

هو .. كان يصلى .. جاثيا رافعا يديه إلى السماء فى غير خجل ..

وهى .. كانت تكتم أنينها وتتخايل لها فى نور الحجرة قطع من الظلام كبيرة فى حجم الفيل .. تغدو وتروح .. والسرير فى دوامة .. وفجأة بدأ سمعها يثقل .. طنين ثم شيء ثقيل له قوام مثل الرصاص الذائب يتسرب إلى قنوات الأذن .. لكن .. قبلها .. كان هناك تصفيق كأنه صادر من مجموعة متحلقة حول نار .. مع رائحة بصل وطوب وأسمنت ورطوبة ومنظر الجلاليب فى لون حجر الجير :

ـــ ولدى .. والادى ى .. ولدى » ..

وبعدها جرى الرصاص الذائب فى قنوات الأذن واستتب الأمر بالنسبة إليها .. أصبح عالمها ذا تعادل غريب .. حسبة كبيرة أو متوسطة أو صغيرة طرح منا حسبة قدرها تماما .. ليكون الناتج « صفرا » ..

وجست الشابة نبضها بخوف .. لكنها لم تفقد قدرتها المدربة على تناول الأمر بحكمة فكل شيء يرسم ومتفق عليه مع الأطراف الثلاثة ..

هو هناك يصلى .. يشعر الآن أنه يملكها ومن أجلها يتطفل على الله و لم يخطر بباله طوال ساعات المخاوف شيء إلا سلامتها هى ..

والشابة واقفة تنعش قلبها بشيء ما .. وتدلك لها يديها ..

وعاد الغناء إلى « درية » .. جفت قنوات الأذن من الرصاص الذائب وعاد إليها الصوت : « ولدى .. والادى ى .. ولدى .. » ..

وانتفضت « درية » وفتحت عينيها .. رأت الرأس الكبير للفتاة المأخوذة فتذكرت عسر الولادة .. واغتصبت ابتسامة .. ثم سألت عن « حسن شيحة » ذلك الذى نودى بهمس فدخل مهرولا .. قلبه يسبق خطواته كعصا المكفوف .. وجلس ثم ما لبث أن نزل ليحضر عربة .. بعد أن تم كل شيء ..

فى البيت لم تعجب الأم فقد قالت لها بنتها منذ يومين أن الجنين فى وضع غير طبيعى وأنه معرض للسقوط وأخبرتها أنها فوجئت بنزيف وليس هناك أكثر من ذلك ..

ونزل « حسن شيحة » والخطابات فى جيبه .. وبات فى طنطا .. يحملق فى الغلافين اللذين يحملان الاسم والعنوان وطابع البريد ويتمنى ألا يكتب لهما السفر أبدا بل تمزقهما « درية » بعد أن تنجو .. وطالما تمنى أن يعرف ما بداخلهما .. لكنه نذر أن يشعل فيهما النار بيده ..

وخلال اليومين اللذين لم تذهب فيهما « درية » إلى عملها بعد الإجهاض كانت تهب من نافذة غرفتها تلك النسمات التى عرفتها على سطح السيدة « زينات » يوم كانت المدينة أمام عينيها ملفوفة فى الغلالة الذهبية .. وبطريقة مكوك الماكينة التى أدارتها فى مشغل الزهور كانت تطفو فى حياتها وتغوص كل يوم عدة مرات .. لكنها لم تكن تحس بألم ولا نقمة .. كنفس تطهرت بالألم فلم تعد تحمل حقدا ..

لكن النزيف عاودها بغزارة .. ووجدت أمها فى آخر الأمر تحت وسادتها ورقة كتبت عليها « درية » فيها بخط كبير .. « أنا التى أجهضت نفسى فلم أكن أحب أن أحمل من أى رجل » ..

* * *

رجع « حسن شيحة » مساء اليوم نفسه من أمام بيتها مذعورا حين رأى معالم موتها .. يمشي وقد وضع يده على جبينه كأنما يخاف أن يسقط منه شيء ..

وفى أول صندوق خطابات ألقى بالخطابين .. ثم نفض يديه كأنما يعلن لمجهول أن مهمته قد انتهت .. وأطرق باكيا ومضى .. ليأخذ أول قطار يخرج به من المدينة ..

الخطاب الأول كان لزوجها على البيت القديم تقول له فيه ما يعنى أنها وقد تطهرت من آثار الرجال تؤكد له — وهى خارج الدنيا — أنها كانت عذراء وكانت صادقة فى قصتها الأخيرة وأنها لا تريد أن تسبب له تأنيب ضمير .. وأنها سامحته .. وكذلك سامحت ذلك الشاب الذى حكت له عنه وربما تصوره الآن فى فانلة وسروال طويل وحوله موقد وعدة شاى وخبز وبصل وكل ما يهم هو أن يعرف سلامة أنه ليس كل فتاة تحمل كلمة السر تستحق الدخول ، وليس كل فتاة لا تحملها تستحق الطرد .. وقالت له أخيرا لسبب غير واضح : اسق أصيص الصبار ..

والخطاب الثانى كان لـ « سمير » .. لم تبثه فيه حبا ولا لوما ولا عتابا بل قالت ما معناه : إنها بعد أن تطهرت من آثار الرجال تؤكد له — وهى خارج الدنيا — أنها غير ناقمة عليه وإن كان هو المسئول حقيقة عن كل ما حدث ..

وذكرته بما قالته فى اللقاء الأخير .. بحكاية الأصيص الخالى من الزرع والماء .. وأنه يمكن إن أثرت فيه مأساتها أن تجعل منه شابا جديرا بوظيفة أخصائى اجتماعى .. فقد ينفعه الألم إن تألم .. وإلا فخير له أن يستأنف نشاطه كرئيس

قديم لفرقة التمثيل فى المدرسة الثانوية سابقا .. ثم تقول له أخيرا : وانظر دائما إلى ذلك الطائر الرمادى ذى الأجنحة الحجرية الذى يريد أن يطير ..

* * *

كان فى جيب « حسن شيحة » الذى وضع الخطابين فيه زجاجة من العطر الزيتى المألوف عنه .. حدث أن ألقت هذه الزجاجة ببقعتين كبيرتين من الزيت المعطر على كل من الخطابين .. ثم ألقى بهما « حسن شيحة » فى البريد .. وعندما فتحهما صاحباهما ملأت أنف كل منهما هذه الرائحة الزيتية وامتزجت ذكراها بذكرى الحوادث عندهما .. لذلك فإن رائحة المأساة ظلت تعاودهما بانتظام كأنما كانت هذه رمزا لتلك .. باستمرار ..

القاهرة فى سنة ١٩٦٦ .

« تمت بحمد الله »

رقم الايداع ٢٠٢٦

الترقيم الدولى ـــ ٥ ـــ ٣١٦٢٠٩ ـــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٣٧٥ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه